رؤى على ضفاف مفهومي الحرية التوحيدية وتوبة الأمم

أ.د. السيد عمر

أستاذ النظرية السياسية الإسلامية بجامعة حلوان

25 أغسطس 2021

رؤى على ضفاف مفهومي الحرية التوحيدية وتوبة الأمم 1

تمهيد لازم... 3

أولا: مقاربة في بناء مفهوم الحرية التوحيدية من الموقف التأسيسي الأول: المعطيات المفتاحية للحفر المعرفي في منافذ إساءة ذات بين العلم والدين.. 5

مفهوم العلم في لسان القرآن 16

ثانيا: مفتاح بناء مفهوم توبة الأمم في لسان القرآن الكريم... 22

مفتاح نموذج قوم يونس.. 22

التوبة الأمتية من ماذا؟ 27

ما هي معالم الرؤية الكونية الكلية الحضارية القرآنية؟ 31

ثالثا : أبرز عواقب غياب الرؤية الكلية القرآنية والأمة المنية 39

رابعا: مفاتيح الفيئة الأمتية إلى صراط الله تعالى.. 56

خاتمة : التوبة الأمتية المؤسسة على الحرية التوحيدية شرط لإصلاح ذات بين الإنسان................ 64

تمهيد لازم

مفتاح بناء مفهومي الحرية التوحيدية وتوبة الأمم هو: إعادة الاعتبار لمفهومي (العلم) و(الدين). وفي التمهيد المطول الذي صدرت به كتاب (أوليات إصلاح ذات بين العلم والدين) الذي توفي مؤلفه المرحوم الشيخ جمال قطب قبل أن ينجزه وتوليت مهمة تحريره والدخول في قراءة مشاركة معه واستكماله، بينت أن مفهومي (الدين) و(العلم) بوضعيتهما في الوعي الجمعي لكافة المدارس المعرفية لا يحظيان حاليا بتعريف يصدق عليه القرآن الكريم ، وأن جذر ذلك الخلل يرجع إلى القرن الثالث الهجري.

ولعله ليس من الترف الفكري الوقوف وقفة متأنية متدبرة نوعًا ما، في ساحة تحديد المعالم الكبرى، التي يكون من العبث البحث في وصف ما آلت إليه الصورة الإدراكية الإنسانية المعاصرة بكافة مشاربها لهذين المفهومين المفتاحين، من عطب، سواء على مستوى التعريف المعياري القرآني لهما، أو لفك أسرهما من الران المعرفي الأحادي القبلة والوجهة، الظالم لهما تفريطًا تارة بنسبة ما هو من صميمهما لما ليس لهما به من صلة، إلا بدعوى ما أنزل الله بها من سلطان، أو إفراطًا بإقحام ما هما بريئان منه براءة الذئب من دم ابن يعقوب، بالخلط بين: جوهرهما وبين صنيع الإنسان بكل أنماطه، وبكل أنساقه العمرانية الربانية الجعل، والإنسانية الجعل، بكليهما. **ومن واجب العصر البحث في آفاق بنائهما معياريا من معين القرآن الصافي لفك أسرهما وتلمس الإحسان المعرفي في إصلاح ذات بينهما .**

ويطرح ذلك منظومة من الأسئلة: ما الدين والعلم في مضمونهما الدلالي المعياري الفرقاني؟ ما الدين والعلم بمضمونهما الدلالي الواقعي المعاصر؟ ما الدين والعلم بمضمونهما الدلالي العمراني الاستدراجي؟ ما الدين والعلم بمضمونهما الدلالي العمراني التمكيني؟ ما هي خريطة الفجوة بين الدلالات الثلاثة الأخيرة لهما، بمؤشرات دلالتيهما المعيارية الفرقانية؟

ودون الغوص في أعماق تلك الأسئلة الأربعة، يستحيل وصف مسعى (إصلاح ذات بين الدين والعلم بالرصانة والرشد، ويكون في أحسن الفروض، جهدًا تزيينيًا وتغليفًا سطحيًا، يعمق سوء ذات البين بينهما، ويحرم العقل المسلم من الإحساس بألمه، وبإلحاح الحاجة إلى مقاربته تخلية وتحلية وتجلية بمداد من (الشرعة والمنهاج) المبينين بالقرآن.

ولعل من البدهي أيضًا القول بأن للإجابة الحقيقية على تلك الأسئلة طريق واحد هو: **المسعى المعرفي** بوحدة تحليلية ناظمها هو: الشرعة والمنهاج الجامعان، بقبلتهما الواحدة المتمثلة في البيت الحرام، بما تفتحه من سبل السلام، وما تقرره من نفي مطلق للإكراه في الدين، وحث على المجاهدة بالقرآن والبلاغ به، وتقرير لتعدد وجهات الأنفس والأنساق الإنسانية العمرانية، ودعوتها جميعًا إلى استباق الخيرات، على أرضية كلمة التقوى، وكلمة السواء، والبر الإنساني الجامع والقسط، لكل من لا يبتغي فتنة غيره في دينه.

فبمسعى معرفي منهجي، تلك هي علاماته، يرجى استعادة الوعي بالجوهر الحق لمفهومي الدين والعلم، وصنع ما لحق بكليهما من أعطاب، ومن اختلاق لتنابذات (هي سمات حقيقية لصورهما الممسوخة وحسب). وعبر سقياهما من ماء كلمتي التقوى والسواء الأمتيين ([1])، وإعادتهما إلى ساحة الاستمداد من النور الرباني، يغدوان زوجان متكاملان في وظيفتيهما القرآنية المتمثلة في وقاية الإنسان بكل أنساقه من الضلال ومن الشقاء، وتتحصل الإجابة الصحيحة على: عدة وعتاد إصلاح ذات بينهما.

فلقد توزع العقل الإنساني على مدى التاريخ بين الدهرية والتوحيد، مع مفارقة الدعوى الدهرية الأبدية بأسطورية الدين المنزل من عند الله في مقابل، الزعم بواقعية وعلمية الديانات الدهرية.

ويستحيل حسم إشكالية الإفساد الدهري والمداهن للعلاقة بين الدين والعلم إلا باجتناب البحث عن الفارق وتخليقه بالهوى واستنادًا إلى معرفة جزئية قاصرة، أثبتت الخبرة التاريخية مرارًا زيف ما تولد عنها من قناعات. ذلك أن الأمم على مدى التاريخ تقع عادة في فخاخ كتابة الأقوياء للتاريخ على نحو انتقائي، يخفي اعطابهم، وكثيرًا ما يلصق ما بهم من عيوب بخصومهم. زد على ذلك أن العقل البشري المكتفي بذاته، وكذا العقل البشري الرافع صوته على الهدي الرباني المنزل، ينزلق كثيرًا عن قصد أحيانًا ولا شعوريًا في أحيان أخرى، في تزييف عبرة الماضي، وفي التعتيم على كثير من مجريات الحاضر.

([1]) بمعنى الناظمتين لعلاقة أمة الإجابة التي دخل في الإسلام مع أمة الدعوة التي تشمل بقية الأمم الأخرى المدعوة إلى الدخول فيه، والمتمتعة بحق الدخول فيه باختيار حر مسؤول، وبين البقاء على عقائدها مع استباق الخيرات.

أولا: مقاربة في بناء مفهوم الحرية التوحيدية من الموقف التأسيسي الأول: المعطيات المفتاحية للحفر المعرفي في منافذ إساءة ذات بين العلم والدين

استحضار حقيقة خلق الله تعالى من كل شيء زوجين اثنين. وحين وحتى حين محا الله تعالى الباطل من على وجه الأرض مع الطوفان الذي أهلك الله به قوم نوح، كان التوجيه الرباني لنوح أن يحمل على السفينة، من كل شيء زوجين اثنين وأهله، إلا من سبق القول عليهم.. وتأسيسًا على ذلك فإن الانطلاق في بناء مفهومي العلم والدين من مرجعية قرآنية، يستدعي حقيقة أن صيغة النكرة منهما تحتمل التعددية اللامتناهية ومفتاحها هو التنقيب عن فوارق اختلاقها، وذاك هو المفتاح الأول لسرابية الفكر سواء في تحديد الدين القيم أو تحديد العلم الحق. وعلى النقيض من ذلك، فإن اتخاذ مفهوم (الأزواج) كوحدة تحليلية، يفتح الأذهان على أن مقتضى الحرية التوحيدية هو: وجود صنفين أساسين من الدين، وصنفين أساسيين من العلم. فمقتضى الجمع بين مبدأ: لا إكراه في الدين، والحرية الأخلاقية الإنسانية المسؤولة، هي أن يتوزع البشر على الدوام بين: أتباع الدين التوحيدي، وأتباع الدين الدهري. وبالتفاعل بين هذين الصنفين يتولد: الدين المداهن والعلم المداهن. وتنتظم أنماط عديدة على متصل الدين التوحيدي، وأنماط عديدة بالمثل على متصل الدين الدهري. (الشواهد القرآنية على ذلك كثيرة من بينها الشاهدان التاليان:

- سورة الكافرون: دين النبي الخاتم والدين الدهري لمن أنكروا وجود الله ورأوا أن أمر الإنسان قاصر على الحياة الدنيا يموت ويحيا وما يهلكه إلا الدهر، والدين المداهن لمن بدلوا دين الله وحرفوه، أو اتخذوا من المخلوقات آلهة من دون الله، أو زعموا أن من المخلوقات ما تقربهم عبادتهم لهم من الله زلفى.

- وثانيهما: ورود مفردة (الدين) في القرآن غير مكتفى فيها بتعريفها بالألف واللام، وتعريفها بالإضافة على نحو ثابت لا استثناء فيه، بما يميز بين زوجي هذا المفهوم المفتاحي بكل جلاء. فلقد وردت مفردة (دين) بصيغة النكرة تسع مرة في سبع آيات من كتاب الله [2]، معرفة بالإضافة بصيغة: دين الله (مرتين في آل عمران والنور)، دين الحق (في سورة التوبة)، دين القيمة (في سورة البينة) في آية

([2]) راجع: آل عمران: 83، التوبة: 29، يوسف: 76، النور: 2، البينة: 5.

انفردت بتعريف الدين الحق الذي أمر الله الناس كافة باتباعه معرفًا بالألف واللام مضاف إليه الخاصتين الملازمتين للمتعبدين به: الإخلاص فيه لله والحنيفية مع إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.

وتعريف الدين الذي تكون تلك هي كيفية التعبد به بكونه هو "دين القيمة ووردت مفردة (دين) معرفة بالإضافة إلى بشر بصيغ: دين الملك (في سورة يوسف) [3]، وبصيغة (دينكم) عشر مرات في تسع آيات، خاصة بدين أهل الكتاب على ما بات عليه، آمرة لهم باستعادة صفائه وعدم الغلو فيه ولا اتباع أهواء من ضلوا وأضلوا، ودين فرعون وقومه [4]، وخاصة بدين الإسلام [5]. وانفردت الآية الخاتمة لسورة الكافرون بالجمع بين شهادة النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم بأمر ربه للكافرين (دينهم) وله صلى الله عليه وسلم (دين) هو دين الله المنزل عليه. وتلك هي المرة الفرقانية التي وردت فيها كلمة دين مسبوقة ب (لكم) وملحق بها ضمير المخاطب (كم) في مقابل ورود لفظ (ولي) وحسب العائدة على النبي الخاتم ρ ومن اتبعه واقتدى به قبلها، ليكون الدين الحق كله لله، وهو المعنى الذي تجليه وتعمقه آيتي يونس والزمر حيث ترد تلك المفردة بصيغة (ديني) معرفة بنسبتها إلى النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم، مصحوبة في ذات الآيتين ببيان تطابقها مع التوحيد الخالص، وهو ما تجلى في تحديد سمات الدين الحق الذي يلتزمه النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا معه، ويدعو إليه غير المسلمين، وإخلاص الدين لله وحده[6].

ووردت مفردة (الدين) معرفة بالألف واللام سبعًا وأربعين مرة [7] بمعان تشمل: يوم الدين، الدين المصطفى ربانيًا للناس، الدين المصاحب لحرمة البيت الحرام، الدين المبين للرشد من الغي لا إكراه فيه، الإسلام، والدين القيم.

وبينت الآيات التي وردت بها مفردة (الدين) أن الدين الحق مفهوم يختلف عن مفهوم (التدين). فالأخير قد يتأسس على تحريف للأول [8]، والإخلاص فيه لله ليس معطى وجوديًا بل هو أمر تكليفي رباني [9].

([3]) يوسف: 76.
([4]) المائدة: 77، غافر: 26.
([5]) التوبة: 12
([6]) يونس: 104، الزمر: 14
([7]) الفاتحة: 4، البقرة: 132، البقرة: 193، البقرة 256، آل عمران: 19، النساء: 46.
([8]) النساء: 46.
([9]) الأنفال: 29.

كما تحدثت الآيات عن ضوابط الاستنصار في الدين، والأخوة فيه [10]، وعن الأمة المنية المتفقهة في الدين الحق [11].

ومما يجلي هذا المعطى تحديد آية التوبة للغاية من إرسال الله تعالى رسوله بالهدى و(دين الحق) بإظهاره على (الدين كله) مما يؤشر على سعة فضاء مفهوم (الدين) ليشمل: دين الحق، ودين غير الحق [12]. وفي جل تلك المواضع جاء لفظ (الدين) مرتبطًا بالإخلاص لله تعالى، وبيوم القيامة.

ولن نواصل تتبع هذا الخيط، ويكفينا لفت النظر إلى ما يعد به من ثمار معرفية فيما لو أمسكت به الجماعة العلمية المسلمة، واعادت به تحرير مفهومي (العلم) و(الدين) مما وقع عليهما من تلبيس وتقزيم وأسر وتشويه، وإعادة بنائهما من النبع القرآني الصافي، بمفاتيح مستقاة منه.

ولننطلق من هذه الإطلالة المعرفية الخاطفة إلى تفكيك أسطورة الصراع الأبدي بين الدين والعلم. فالباحث في العلاقة بين الدين والعلم في الواقع الإنساني المعاصر، يجد نفسه أمام سيل من الادعاءات عديمة الإساس بدءًا من مقولة وجود معركة أزلية بينهما، مرورًا بتناقضات أطروحات الفلاسفة والمؤرخين حول تحديد ماهيتهما وطبيعة العلاقة بينهما، ودعوى البعض أسبقية العلم على الدين، ودعوى البعض الآخر استقلال العلم عن الدين، وقدرته على الاستغناء عنه.

ويحسن هنا الإشارة إلى مفهوم القراءة السياقية للقرآن الكريم ويراد بهذه القراءة مقاربة أي مفهوم قرآني على أنه بمثابة نقطة الارتكاز التي يتم منها قراءته في الآيات التي ورد بها ثم في السباق واللحاق القريب ثم في السور التي ورد بها ثم في القرآن كله بصفة جملة واحدة أو حتى كلمة واحدة.

وهذه المنهاجية كان لمحمد عبد الله دراز الريادة في إعادة استكشاف قواعدها وتطبيقها وتبنتها مدرسة إسلامية المعرفة بريادة منى أبي الفضل وطه العلواني وعمقتها تنظيريًا وتطبيقيًا في عشرات البحوث والدراسات.

والمستوى الذي نطبقه بها في هذه المقدمة هو مستوى استدعاء معالم مفهوم (الأسماء) كما ورد ت في آية البقرة مضاف إليها كونها من تعليم الله تعالى المباشر لآدم υ ومصحوبة بكلمة كلها في مقابل

---

(10) الأنفال: 72، التوبة: 11.
(11) التوبة: 122.
(12) التوبة: 33

الأسماء المختلقة وأولها تسمية إبليس اللعين الشجرة المحرم الاقتراب منها (شجرة الخلد والملك الذي لا يبلى) والتي مع انخداع آدم بها صار لدينا ثلاثة أنواع من الأسماء بالنسبة لأي شيء: اسم سماه الله به يتطابق بالمطلق مع كنهه وماهيته ويحيط بحقيقته واسم مشتق منه قدر الاستطاعة الإنسانية من المستجيبين لأمر الله ونهية التكليفيين، يمثل: الإسم الإنساني النسبي الرشيد واسم مشتق منه بزخرف القول وبتضليل شياطين الإنس والجن، يمثل: الاسم الذي لم ينزل الله به سلطانًا.

وبتطبيق ذلك على مفهومي الدين والعلم يتبين أن إصلاح ذات بينهما من منظور توحيدي يعني معايرتهما باسميهما الربانيين بمضمونها المبين في القرآن المجلي لهما على المستوى المعياري وعلى المستوي المهتدي به وعلى المستوى المستنكف عنه. وسنكتشف أن العلاقة بين مفهوم الدين والعلم تبلغ حد التطابق المطلق وكل تفريق بينهما إنما هو بواحد من اثنين: نسبية الاسم الإنساني الجعل لهما وكذا نسبية الاسم الإبليسي لهما وكل منهما معرف بمضمونه تفصيليًا في القرآن.

وجوهر إصلاح ذات بين الدين والعلم يتمثل في استكشاف معالم كل اسم من الأسماء الثلاثة لكل منهما وتفكيك وفضح محتوى الأسماء المداهنة لكل منهما. فمكمن الخطر عليهما هو تلبيسهما على نحو يختلط فيه بعض الحق ببعض الباطل فيوقع في زخف القول ـ ويؤدي مع النسيان والافتقار إلى العزم على التزام العداوة المطلقة لإبليس اللعين إلى فضح السوآت الإنسانية وعبادة الهوى واتباع خطوات الشيطان واتخاذ شركاء من دون الله وإحلال العلم الحق بالعلم المفرق بين المرء وزوجه.

وبسورة البقرة آيات تسع آيات تفصح القراءة السياقية المنهجية -التي أشرنا إليها- لها عن تزيف كل تلك الدعاوى المفتعلة، وتحدد المصدر الأول لكل من العلم والدين، وطبيعة العلاقة بينهما، وذلك في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (30) وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (31) قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (33). وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ (35) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ

إِلَى حِينٍ (36) فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (37) قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (38)﴾

ففي هذه الآيات الكريمة عشرة معطيات مترتبة ومترابطة مبينة لماهية كل من الدين والعلم، ومفصلة لشروط استقامتها، على صعيدي التنظير والتطبيق معا،

- أولها: بيان من الله تعالى لملائكته بانصراف مشيئته إلى خلق آدم، وخلق زوجه من نفسه، واستخلافهما هما وذريتهما في الأرض إلى يوم أن تقوم الساعة في الوقت المعلوم الذي لا يعلمه إلا الله.

- وثانيها: استفسار الملائكة عن الحكمة من خلق الإنسان، وتزويده بحرية قد يسيء استخدامها، ويعق[13] بها الأرض بالفساد فيها، ويظلم جنسه نفسه بأن يسفك بعضهم دم بعض. واستفسارهم هذا هو استفسار المسبحين بحمدهم ربهم، المقدسين له، المتجاوزين حد التنزه عن معصية أمره جل وعلا، إلى التنزه عن سقوط بعض بني الإنسان فيها، بالعدوان على الأرض، وعلى النفس.

- وثالثها: الرد الرباني عليهم بأن ما كشفه لهم من أمر آدم قبل أن يخلق، إنما هو بعض ما لديه جل وعلا من العلم بما سيكون منه، وأن على كل مخلوق أن يتبين الحكم على ما سيكون من صنيع مخلوق آخر في غده، بناء على علم نسبي، وأن يفوض الأمر لله وحده الذي أحاط بكل شيء علمًا.

- ورابعها: الكشف الرباني لبعض العلم الذي لو كان لدى الملائكة من أول الأمر، لما كان حكمهم على آدم وذريته، تعميمًا لحكم قاصرٍ على فئة منهم عليهم جميعًا. وهذا البعض من العلم الكافي نظريًا لتحول الملائكة من مُستَّعلِمين عن وجهة عمل المخلوق المرتقب، إلى شهود عدول له وعليه، مستجيبين لربهم فيما أمرهم بأن تكون عليه علاقتهم به إلى يوم الدين، هو: تعليم الله آدم الأسماء كلها، بما يستبطنه ذلك من بيان أن القدر الكافي من العلم لتكريم آدم وذريته، ولشهادة الملائكة له وعليه بالحق، هو: التعليم الرباني له تسمية كل شيء بالاسم الرباني الذي سماه الله به.

([13]) يستدعي هذا الفعل فكرة علاقة الوالدية التي بين الإنسان والأرض من حيث خلق الله تعالى آدم من تراب، ومن حيث حقيقة خلق الله تعالى ذرية آدم وحواء من ماء مهين، هو بدوره مما يتخلق في جسم الإنسان وينمو جسم الإنسان ويحيا على طعام يخرجه الله من الأرض، أومما يأكله من الأنعام والطير مما يعيش وينمو على ما يخرج من الأرض من نبات، مما يمثل معنى إنبات الله للآدميين من الأرض نباتًا. وهنا تترتب علاقة والدية بين الإنسان والأرض ويحسن الإنسان إلى امه هذه باستخدام الطيبات فيما خلقها الله له من عمران ومن حياة طيبة ويشكر نعمة الله عليها، أو يقع في عقوقها باستخدامها على غير الوجه الذي شرعه الله ويظلم بذلك نفسه وغيره ـ المحرر.

- وخامسها: هو تعليم آدم وذريته ما ينبغي أن يكون عليه رد الصادق حين يأمره الله تعالى بالإنباء عن أسماء ما تقف معرفته بهم عند مجرد عرضها عليه، في مقابل من علمها الله له. فلقد كان ردهم هو فضاء الإنباء بصدق هو ما علمهم الله إياه، سواء كان علمهم به بالتلقي المباشر من ربهم، أو بالتعلم ممن يوقنون أنه ينبئ بعلم علمه الله إياه، وأمره بالإنباء به.

- وسادسها: إقرار الملائكة بأن في القدر الذي يأذن الله تعالى بتعليمه لمخلوقاته الكفاية، كون محدده هو اسمان مقترنان من أسماء الله الحسنى (الحكيم العليم) بيقين صادقين يعلمون انفراد الله وحده بهما في إطلاقهما، ونسبية نصيب كل من عداه منهما كونه مكشوفًا بقدره وحكمته.

- وسابعها: قابلية المخلوقات لدى ابتلائهم بالحرية في ساحة الأمر والنهي الربانيين التكليفيين لالتزام الصدق، وللزلل الأبدي. فآدم المُعَلم الأسماء كلها استجاب لأمر ربه بأنباء الملائكة بأسمائهم: ملائكة مقربين لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، يستغفرون لمن في الأرض، يسبحون بحمد ربهم لا يفترون، كرام كاتبين، سفرة كرام بررة يتنزلون بأمر الله وبوحيه إلى عباده، يشهدون شهادة حقٍ لرقيب عتيد، في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من قول الإنسان وفعله بكل أنساقه، إلا أحصاها.

وبتلك الشهادة من آدم للملائكة المكرمين، كان سجودهم لآدم، متمثلاً في أخذ الميثاق عليهم بطاعة أمر ربهم فيه، وفق أسمائهم التي علمها الله له وعرضها هو عليهم، وهو المخلوق للتو من تراب، لا علم له إلا ما علمه الله له، وينطق وينبئ، لا باستقامة الملائكة في لحظتها، بل ببشرى الله لهم جميعًا بالثبات عليها في الدنيا والآخرة.

وفي طيات هذا الإنباء من آدم للملائكة بأسمائهم يأتي إنباؤه لهم بأن سيكون من ذريته محسن وظالم لنفسه مبين، وبأنهم سيصلون ويسلمون مع ربهم على الصالحين من ذريته، وسيستغفرون لمن يخطئ منهم ويتوب من قريب، وسيلعنون من يصر منهم على كفران نعمة ربه عليه، وسيتنزلون بكلمة الله وبأمره على كلٍ بما هو أهل له من الجزاء، جنودًا من بين جنود الله الذين لا يعلمهم إلا هو جل وعلا.

وفي المقابل، سقط إبليس في ساحة اختباره بالحرية المسؤولة، بالانفراد بالحكم بما لديه من علم جزئي نسبي كشفه الله له عن شريحة من ذرية آدم تسقط في دركات معصية أمر الله ونهيه التكليفيين، وتتخذ من الإفساد في الأرض وإراقة الدماء وظيفة لها في الأرض في الأجل الذي قدره الله لها بكل أنساقها

الفردية والزوجية، في كل مكان وزمان، واختار الانفراد بمعصية أمر ربه على علم، وطلب الإمهال إلى يوم القيامة، لا ليراجع موقفه من ظلم مخلوق مثله عن استكبار وعناد، و إنما ليقيم – بظنه وعماه - الحجة على ربه، بتبديل نعمة الله عليه متمثلة فيما أنبأه به عبر آدم من مآله، كفرًا بربه، وتوعدًا باحتناك ذريته إلا قليلاً، وبالتعاضد مع أوليائه من المفسدين من شياطين الإنس، في الإضلال عن سبيل الله، وفي الإفساد في الأرض، وإهلاك الحرث والنسل، والقعود لبني آدم لصدهم عن صراط الله المستقيم، وغوايتهم بزخرف القول غرورًا.

- وثامنها: إقامة الله تعالى الحجة البالغة على الإنسان. فمن لحظة نفخ الله تعالى فيه من روحه، بعد خلقه من طين وتسويته، أنعم عليه بلحظة تأسيسية كاشفة لثقل أمانة الحرية التوحيدية، المقتصر فضاؤها على: الأمر والنهي الربانيين التكليفيين إلى أجل معلوم بالنفس لكل نفس إنسانية مخلوق منها زوجها، بكل أنساقها، في يومها الدنيوي الذي قدره الله تعالى سلفًا، واستأثر بعلمه.

وعلمه الأسماء كلها. وجعله يرى بأم عينيه أن لا علم لمخلوق إلا ما علمه الله له، وأن العلم الصحيح مع الصدق يورثان علاقة تسبيح مشترك بحمد الله بينه وبين الملائكة أجمعين. وأن أولئك الملائكة أولياء له حال استقامته على الطريقة وتسميته الأشياء بالأسماء التي علمها الله له. وأنهم رضوان الله عليهم لا ينبؤون إلا بما علمه لهم الله، وبما علموا يقينًا أنه مما علمه الله لآدم، وأذن له في إعلامهم به. وأن لا عبرة بعلم نسبي مهما كانت درجة صحته حين يظن صاحبه أنه يصلح لأن يكون هو ميزان معرفة ما سيكون في ملك الله وفي ملكوته. فمقام العلم النسبي هو السجود في محراب العلم الرباني المطلق، الذي لا يعد ذلك العلم النسبي بالنسبة له، إلا أدنى من نظير ما يعلق بمنقار طائر من ماء بحر لجي يمده من بعده سبعة أبحر، وأن الاستكبار في الأرض، بحرية نسبية إلى أجل معلوم، في كون مقاليده جميعها بيد الله وحده، هو عين السفه. وسينطق إبليس اللعين بكلمة الحق رغم أنفه يوم بدر ويوم يقوم الأشهاد. وستعلم كل نفس حين تجيئها سكرة الموت بالحق أن الله هو الحق، وأن ما جاءت به رسل الله تعالى هو الحق المبين.

وفي تلك اللحظة التأسيسية الأولى تبين الرشد من الغي. وتحددت العلاقة بين الإنسان والخالق وبقية المخلوقات. وعرف آدم بعلم رباني المصدر أولياءه، وعدوه الأزلي المبين، وأُخِذ عليه الميثاق فيما حمل به من أمانة طاعة الله باختيار حر مسؤول، وتلقى تحذرًا ربانيًا صريحًا ومغلظًا من سوء مآلات عدم اتخاذ

الشيطان عدوًا، كونه عدو لله وله إلى يوم الدين بعلم الله تعالى الأزلي المكشوف فيه، ليس في لحظته تلك وحسب، بل في غده حتى يوم الحساب.

- وتاسعها: إقامة الحجة البالغة على عدم جدوى علم لا تصاحبه تذكرة به وعزيمة قاطعة على العمل بموجبه، وفق قاعدة زوجية الأركان: طاعة الأمر التكليفي الرباني قدر الاستطاعة الإنسانية، وطاعة النهي التكليفي الرباني بعزم قاطع بات، في الآيات الكريمة أمران ونهيان مفتاحيان.

فأما الأمر الأول فهو (اتخاذ الشيطان عدوًا). ومقتضى هذا الأمر المسبوق بتأكيد رباني مغلظ على عداوته الأبدية المطلقة للإنسان، يغدو هذا الأمر أثقل من كافة الأوامر الأخرى كون العزيمة في تذكره والالتزام به هو مفتاح تعزيز القدرة على طاعة كافة الأوامر والنواهي الربانية التكليفية الأخرى. ومقتضى اتخاذه عدوًا الحذر من تزييفه لدلالة أسماء الأشياء، وبذل النصح والنصيحة، والتناهي عن فعل كل ما توعد هو بأن يجعل أكثر الناس يفعلوه من تبديل نعم الله عليهم كفرًا، والتذكر فيما لو مس الإنسان طائف من وسوسته والتوبة والإنابة إلى الله والاستعاذة به لاستعادة البصر والبصيرة، ولعنه والدعوة إلى الحذر من مكره وخبثه.

وأما الأمر المفتاحي الثاني المصاحب له فهو: أمر آدم وزوجه بالأكل من الجنة حيث يشاءان رغدًا. فذاك أمر تحكمه بالقطع طاقتهما في الأكل من تلك الطيبات. وصَاحب هذا الأمر وعد من الله تعالى لهما يجعلهما يطمئنان على أن رزقهما في الجنة مكفول على الدوام. فلهما فيها: الضمان الرباني من الوقاية من أربع: الجوع، والعري، والظمأ، والظل الواقي من حر الشمس. وبضمان هذه النعم الربانية الأربع تنتفي إمكانية عوز الإنسان لأي مخلوق، حتى للجنة ذاتها، فيما لو أطاع الله فيها.

وأما النهيان الربانيان التكليفيان فهما النهي عن شجرة بعينها من بين كافة أشجار الجنة، والنهي عن الوقوع في فخ كيد إبليس بزخرف القول وبالأيمان المغلظة وتصديق ظنه بمعصية ذلك النهي الرباني. فالنهي عن الاقتراب من الشجرة المحرمة الشامل حتى للاستظلال بظلها، ناهيك عن الكل منها كان هو أول ابتلاء بالحرية التطبيقي، وكان ولا يزال وسيظل حتى يوم الدين مثالاً قرآنيًا تأسيسيًا فريدًا، لا تختلف عنه قد قطمير كافة ابتلاءات الحرية التوحيدية في بعدها الخاص بما نهى الله عنه، إلا في التفاصيل.

ذلك أن الفشل التأسيسي السابق لثبوت ضعف عزم آدم، وتصديقه عدوه عن نسيان وأكله من الشجرة، وما ترتب على ذلك من ظهور سوأته هو وزوجه، تمثل في: استعلاء إبليس على آدم بحجة أن المادة التي

خلقه الله منها (النار) أفضل من المادة التي خلق منها آدم (الطين). والبعد المصاحب لذلك الإخفاق هو: تحكيم العلم النسبي في العلم الرباني المطلق، والذي يتجاوز به إبليس حدود رفض الأمر الرباني له إلى دركات: الاستكبار والعلو عليه عوضًا عن الاستجابة له قدر استطاعته. ويصاحب هذين المعلمين في ذلك الإخفاق الإبليسي في الابتلاء بالحرية في هذا الموقف: الإصرار على تحدي الأمر الإلهي، وتوظيف ما كشفه الله تعالى من علم نسبي عن ما قد يقع فيه كثير من الناس من فشل متعمد تارة وعفوي تارة أخرى في الوفاء بأمانة الحرية التوحيدية، في الإفصاح عن العداوة الأبدية لآدم في مواجهته مباشرة بإعلان أنه لو أمهله الله تعالى، فسيكون قادرًا على البرهنة على انتفاء الحكمة الربانية في تكريم الإنسان عليه.

ويجسد مستوى الفشل في ابتلاء الحرية الذي حصله إبليس في هذا الموقف المعالم الكبرى لدركات معصية الأمر الإلهي، والمآل الذي تفضي إليه بالنسبة للواقع فيها، ألا وهو: لعنة الله والملائكة، ومعهم الناس أجمعين، في الحياة الدنيا (بالنسبة لمن لا يتبعون خطواته ويتخذونه عدوًا، ومن يتوبون من قريب، ومن يعتبرون بما يكتشفون من دلائل على سوء منقلب من يتخذ وليًا من دون الله) وفي الآخرة (بالنسبة للناس كافة، وفي الصدارة منهم من أغواهم وأوردهم نار الجحيم)..

وأما النهي الثاني فهو نهي فريد في تركيبته القرآنية. ذلك أنه نهي عن التسبب بالنسيان وبالعجلة وعدم التدبر في إخراج الشيطان لأبوينا من الجنة. فصيغة النهي التكليفي هي (فلا يخرجنكما) من الجنة. وذاك النهي الكاشف عن أنه كما صرح هو نفسه في مواجهة وعد الله تعالى بنفي سلطان ذلك اللعين عن عباد الله المخلصين، وقصره على الذين يتبعونه وينهجوا نهجه، وإقراره هو – لعنه الله – في ذلك الموقف التأسيسي – استثناء المخلصين من عباد الله من وعيده، يقيم الحجة على المسؤولية الإنسانية الكاملة عن كل قول وفعل في ساحة المنكر والفاحشة التي يدعو إليها الشيطان. والتحذير من إمكانية خروج الشيطان ظافرًا في بعض جولات كيد مع شرائح من البشر، متبوع بالوعد الرباني بتحصين المخلصين والتوابين وأصحاب النفس اللوامة من كيد ذلك العدو الأبدي اللعين. وأخيرًا جاء ذلك النهي عن التصرف على نحو يتيح للشيطان إخراج الإنسان من الجنة، مصحوبًا ببيان المآل وهو: الشقاء، بوصفه هو الثمرة الوحيدة للإخفاق في الابتلاء بالحرية التوحيدية.

- وعاشرها: التمييز بين معصية من يعصي الله تعالى مصرًا على معصيته مع وعيه بعاقبة ذلك، وبين من يعصاه تحت تأثير التغرير به والنسيان. فجزاء الأول هو اللعنة الأبدية. وأما الثاني فينعم الله تعالى

عليه بكلمات يستغفر بها ربه، فيتوب الله عليه، ويجتبيه. وتبين لآدم وحواء عاقبة النسيان وتصديق عدو مبين لهما بعلم متلقى من الله تعالى، في مقابل عاقبة التوبة النصوح، والأوبة بكلمات من الله إلى الميثاق المأخوذ منه ومن ذريته لربه بالتوحيد الخالص، واتخاذ الشيطان عدوًا. وبالمعنى ذاته أمر الله آدم وحواء وعدوهما بالهبوط إلى الأرض، محكومين جميعًا بأمره التكويني، مخيرين بخصوص أمره ونهيه التكلفيين، مع إعلام آدم وحواء أنهما والجن مكلفان مسؤولان بتلبية أمر ربهم ونهية التكليفيين قدر استطاعتهما، واجتناب نواهيه، والتوبة لدى الحيدة عن صراط الله المستقيم؟ ورافق هذا الإعلام تكليف بالتزام عداوة إبليس اللعين، والعلم بأن الواقي الوحيد من كل من: الضلال والشقاء هو اتباع الهدي المنزل من عند الله.

تلك هي بإيجاز بالغ صوى تأسيس الموقف الأول في عالم الغيب للموقف الثاني الذي فضاؤه هو الكرة الأرضية ومدته الزمنية هي اليوم الدنيوي، والجزاء فيه لا يحسم بكامله إلا يوم تقوم الساعة. والسموات والأرض مخلوقة للتبديل، وأما الثقلين فمخلوقان للخلود في الآخرة، وفق حصاد سعيهم في الدنيا وما اختاروه من رشد أو من غي في مجال الأمر والنهي الربانيين ا لتكليفيين.

وبذا تتضح العلاقة العضوية بين الدين القيم والعلم الرباني المصدر، في مقابل العلاقة العضوية بين الدين الدهري الزائف والعلم الإنساني المستقى من اكتشاف العلاقة بين الأشياء في عالم كل شيء مخلوق فيه بقدر، وكل شيء فيه يسبح في فلك معلوم، والقدرة الإنسانية على إعادة تشكيل الأشياء تعزز القدرة الإنسانية على واحد من أربعة أفعال: الإحسان، العدل، الطغيان، الخداع وتزيين الباطل. وفاعل أي من تلك الأفعال الأربعة قد يكون فرد أو أزواجًا أو أنساقًا عمرانية.

وقد تكون وجهة السعي هي الاستقامة على الطريقة والتعاون على البر والتقوى، وقد تكون وجهة السعي هي تنكب الصراط المستقيم والتبييت والأمر بالمنكر والبغي في الأرض بغير الحق واتباع الهوى، وهجر الهدي المنزل من عند الله، وتحريف الكلم عن مواضعه، وتسمية الأشياء بغير أسمائها.

والإنسان بما اتصف به من عجلة، وقابلية لتعطيل قابليات التدبر في آيات الله المبثوثة في الآفاق وفي الأنفس، وقابلية للتغرير به ولاتباعه الهوى، وللدعوة إلى ما يظنه بعلمه النسبي القاصر خيرًا وهو في حقيقته شر. وبتلك السمات يتصف الإنسان بكونه ظلومًا جهولاً. ودواء (الظلوم) هو الهدي المنزل من عند الله. ودواء (الجهول) هو العلم المصدق عليه بما هو منزل من عند الله.

ولباب الابتلاء **بالحرية التوحيدية** هو بكل بساطة ووضوح: النهي الرباني المطلق عن ظلم الإنسان لأي مخلوق من مخلوقات الله والمرادفة بين ظلم إنسان أو حيوان أو نبات أو حجر، وبين ظلم النفس، والأمر باستماع القول واتباع أحسنه، بالتعاون على البر والتقوى، والتزام جادة العدل والإحسان، واجتناب رفع الصوت على القرآن العزيز المهيمن القيم المصدق، الذي هو كلمة الله والنبي المقيم في البشرية إلى يوم الدين، والمتفرد بانتفاء الاختلاف فيه، وبوظيفة: بيان ما اختلف الناس فيه.

من المهم الحذر من أن تنسينا هذه العبارة ما هو أهم وهو حقيقة أن الله تعالى أعلم ملائكته بأنه سيخلق آدم للخلافة في الأرض قبل أن يخلقه بالفعل، وكشف لهم قدرًا من العلم به تحدثوا به قبل أن ينفخ الله الروح في آدم ويعلمه الأسماء ويكشف آدم لهم ما أمره الله أن يكشفه لهم ومعهم إبليس منها.. وبالتالي قد تحتاج تلك العبارة إلى مراجعة في ضوء ما نطق به كل من الملائكة والدور الإفسادي الذي توعد إبليس بالقيام به فيما لو أمهل إلى يوم الدين. فالملائكة تساءلوا عن أن من بين الآدميين من سيفسد في الأرض ويسفك الدماء. وما كان لهم وهم من لا ينطقون إلا بما لديهم به علم من الله أن يقولوا ذلك من عند أنفسهم.

وبالمثل حين يتجرأ إبليس اللعين على القول بأنه سيحتنك أكثرية البشر ولن يكون أكثرهم شاكرين لله إنما ينطق بما كشفه الله له مع ملائكته بحكم ما سيلي من شموله بالأمر بالسجود لآدم بمجرد أن ينفخ الله فيه من روحه. والملائكة حين تبين لهم من عرض آدم ما أمره الله بعرضه من الأسماء لهم، تبينت لهم الحكمة وهي أن العبرة في الابتلاء بالحرية التوحيدية ليست أمر كثرة وقلة فالإنسان الواحد المؤمن بربه المخلص له دينه باختياره الحر هو بمثابة (أمة) وعمله بالغ الثقل في ميزان الحق. وعلى العكس فإن القلة التي تعشوا عن ذكر الله وتتبع الهوى فهي أكثرية عديمة الوزن وعملها مهما بلغت ضخامته إنما هو من قبيل تعجيل حسناتهم لهم في الحياة الدنيا أو بتعبير آخر إلى الأجل الذي سماه الله لكل منهم في علمه الأزلي ثم يقدم أمر الله إلى ما عملوا فيجعله هباء منثورًا.

وتكشف المهام التي كلف الله بها ملائكته تجاه الإنسان بكل أنساقه في الحياة الدنيا ومن بينها: إحصاء أقواله وأفعاله الظاهرة والشهادة عليه والدعاء للمؤمنين بالرحمة والتنزل بالهدى على رسل الله وأنبيائه والتنزل بالعذاب على من حقت عليهم كلمة العذاب تؤشر على أن ذلك الموقف التأسيسي يتضمن معطيات ناظمة لكل أبعاد السعي الإنساني في القرآن وللعلاقة بين الأرض والسماء فيما لو قرأناه بمنهاجية القراءة السياقية.

فلننتقل إلى التأسيس القرآني لمفهومي الدين والعلم بافتراض أن البحث في سبل إصلاح ذات بينهما يتطلب بناء معيار له مؤشرات واضحة يمكن به: تحديد ما يحتاج إلى إصلاح (وتلك هي عملية التخلية)، وما يحتاج إلى إحلاله في بنية هذين المفهومين بعد تخليتهما من صحيح ما يصدق عليه القرآن الكريم ويهيمن عليه، والتفكر في ضوء حصاد عمليتي التحلية والتخلية في آفاق تجلية تلك العلاقة، وطرح بعض أفكار لبلوغ عتبة الارتقاء المخطط المنهجي بها من واقعها الراهن باتجاه بنيتها المعيارية قدر الاستطاعة الإنسانية، وإعادة بناء علوم امتي الإجابة والدعوة على هدي منها.

ويقوم هذا التأسيس على زوج من الوحدات التحليلية متكاملين، هما: منظومة الهداية الربانية كما هي مبينة في القرآن الكريم، ونصيب الإنسان بكل أنساقه من أسماء الله الحسنى فيما يتعلق بترشيد كل من: تدينه، وعلومه الإنسانية الحياتية. وبناء على هذا التصور ينقسم هذا الفصل إلى ثلاثة مباحث، موضوعاتها على التوالي:

1. مفهوم العلم في لسان القرآن
2. العلاقة بين الدين والعلم في رحاب النصيب الإنساني من أسماء الله الحسنى.
3. مفهوم الهداية الربانية في القرآن الكريم، ونصيب الإنسان بكل أنساقه من أسماء الله الحسنى العلاقة بين الدين والعلم في نور مفهوم الهداية الربانية.

مفهوم العلم في لسان القرآن

ما هو ضد الهوى والجهل والعناد وهكذا يرتبط كل من الدين الحق والعلم النافع بأيام الله، ففيهما عين المعرفة الناظمة للسعي الإنساني في الأرض النافية لأيام الجاهلية وللجهل وللجهالة. ومن الأهمية بمكان في مقاربة مفهومي الدين والعلم في لسان القرآن التنبه إلى المقام الرباني المطلق للمفهومين، في مقابل المقامات الإنسانية النسبية جميعًا لهما. فدين الله، وعلم الله مفهومان يتسمان بالكمال المطلق اللازماني واللامكاني، بينما نصيب الإنسان منهما هو موقع على متصل (التدين) الذي يبدأ من تسليم الوجه لله والتوحيد الخالص قدر الاستطاعة الإنسانية، وينتهي في التدين بغير دين الله الحق واتباع الهوى وعبادة شياطين الإنس والجن.

وبالمثل فإن علم الله الأزلي المحيط بكل شيء كان وكائن وسيكون، لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات والأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، يقابله حظ الإنسان النسبي من القليل الذي آتاه الله له،

وتنتظم على متصل العلم الإنساني أنماط تبدأ من العلم النافع المهتدي بنور أيام الله وتنتهي بالعلم الضار المفرق المغرق في الجهالة وفي ظلمات الجاهلية. وعلى صعيد مفهوم العلم الرباني نطالع في القرآن الكريم شموله للشهادة وللغيب وإحاطته بكل ما بالوجود وللعلم في لسان القرآن أنواع عديدة، يأتي على رأسها: علم الله عزوجل. فهو جل وعلا ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال:61] ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال:71]. وعلم الله تعالى بمعيار نوعية معلومه نوعان:

- أولهما: الغيب.

فهو: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ [الجن:26]، وهو: ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: 109]. ودعوة العارفين به وفي الصدارة منهم إبراهيم الخليل عليه السلام هي ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاء (38)﴾.

- وثانيهما: الشهادة.

بمعنى العلم بسائر الكائنات المشهودة حيث قدرها وخلقها ونظم وظائفها وأعانها عليها. فهو سبحانه وتعالى ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: 9].

وأما سنام علم المخلوقات فهو (علم الوحي) المنزل من عند الله تعالى. فالوحي منحة إلهية محضة ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم:4].

وتتعدد صنوف علم البشر باختلاف نصيب كل منهم من علوم الوحي، ومن العلم المحصل بالتفكر في السماوات والأرض، والتدبر في آيات الله تعالى في الأنفس وفي الآفاق. ومن البشر من يحسن الانتفاع بما وهبه الله تعالى من السمع والبصر والفؤاد، ويستخدمهم في تحصيل العلم النافع على نحو مسؤول يؤدي إلى الفلاح، ومنهم من يعطل هذه القابليات، ومنهم من يسيء استعمالها ويوظفها في غير ما خلقت له ويقفو ما ليس له به علم.

ويبين القرآن الكريم أن للعلم الإنساني جملة خصائص:

- أولها: ضآلة علم الإنسان وقابليته للزيادة ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء:85].

- وثانيها: ارتباط الرفع به بالجمع بينه وبين الإيمان بالله. يقول الله تعالى في بيان فضل العلم والعالم المؤمن ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة:11].

- وثالثها: القابلية بالزيادة بطلب ذلك من الله تعالى: {وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا} [طه:114].

ويتضمن القرآن الكريم بيانًا شافيًا وافيًا لضوابط العلم النافع، سواء على مستوى الأقوال أو السلوك والأفعال.

- ويتصدر تلك الضوابط مبدأ: العدل في القول

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ [الأنعام: 152]. ومن العدل المعرفي عدم القول بعلم يقف عند ظاهر من الحياة الدنيا. فينعي القرآن على مثل هذا العلم الذي يورث صاحبه أحكامًا مختلة نتيجة غفلته عن المآلات وعن حقيقة ما بعد ذلك الظاهر السطحي في الآخرة.

- الضابط الثاني: التثبت والتبين فيما يتلقاه الإنسان من معلومات من غيره – ترتيب استحقاق العقاب على العجز عن تقديم حجة علمية على عدم التقصير في واجب يظن آخرون أن المرء قد قصر في الضابط الرابع: مراعاة الأمانة العلمية بتحري الوزن بالقسط واجتناب السعي في الأرض بالفساد، والتزام تقوى الله ومعية الصادقين.

- الضابط الخامس: تجاوز الحسن إلى الأحسن في مقارعة الحجة بالحجة.

- السادس: إلزام من مهمته تعليم غيره الحكمة والكتاب باللين للمتعلمين والعفو عنهم ومشاورتهم في الأمر بما ينشئه على خير وجه ويزكيه، أسوة بالنبي الخاتم.

- السابع: إلزام من مهمته تعليم غيره الحكمة والكتاب باللين للمتعلمين والعفو عنهم ومشاورتهم في الأمر بما ينشئه على خير وجه ويزكيه، أسوة بالنبي الخاتم.

- الثامن: النهي القاطع عن القول بلا علم.

وبما أن الله سبحانه اختار لذاته أسماء حسنى وعددها، منها ما علمنا ومنها ما استأثر بها في علم الغيب عنده، فينبغي أن تبقى هذه الأسماء الحسنى خاصة بذات الله وقيوميته. ولا يتطفل البعض فيحاول أن يجعل لبشر بل حتى للرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم أسماءً منها حتى لا نقع في شراك ما لم يأذن به الله، وما لم يفكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه، وتبقى المسافة بين الخالق والمخلوق قائمة وأبدية، بحيث يتيقن الإنسان العارف بربه بحق وعن بينة باستحالة أن يتحول الخالق إلى مخلوق أو أن يكون له صاحبة أو ولد أو شريك أو مثيل في خلقه، أو أن يرتقي أي مخلوق مهما بلغ من الصلاح ومن رضا الله عنه ومن حسن التدين وتمام العلم، إلى ما هو أسمى من كونه (عبدًا لله تعالى وحده)، أو أن يستنكف أن يكون عبدًا لله وحده، أو أن يبلغ من العلم الرباني مقامًا لا يكون فيه متطلعًا إلى الاستزادة منه بدعاء ربه وبالأخذ بالأسباب

ومن المتعين هنا استدعاء إضاءة معرفية ثانية لعلها توازي سابقتها في أهميتها، بل تعتبر أساسًا لها تتمثل في لفته النظر إلى أن للإسلام طابع فريد من زاوية كونه هو الدين الوحيد الذي يعتبر أي دين آخر صحيح، إلى أن يقوم الدليل القاطع على عدم صحة ذلك، ويفتح بعد ذلك الباب في حق كل دين آخر في البقاء على قدم المساواة بالنسبة لمن يؤمنون به، طالما أقر أتباعه بمبدأ: لا إكراه في الدين، ولم يسعوا إلى فتنة غيرهم في دينهم. ويدعوا أتباع كافة العقائد إلى كلمة سواء قائمة على تعدد الوجهات مع استباق الخيرات.

والفاروقي ليس منشئًا لهذا المبدأ، بل هو معيد لاكتشافه وإبرازه بعد أن عصفت به أفكار ميتة وقاتلة بدعاوى لا أساس لها وتأسست موجة الدهرية المعاصرة على ذات الأساس الذي قامت عليه الدهرية في كل زمان ومكان، وهو الشك في الدين الذي لا يقره العقل الإنساني المكتفي بذاته، والذي يعتبر ما عدا ذلك مجرد معطى شخصي لا علاقة له بالشأن العام ولا بالعلم.

وترتب على بناء مفهومي الدين والعلم على ما يسمى الشك العلمي الموضوعي ثلاث نتائج طيبة بالنسبة للإنسان الغربي، وثلاث عواقب وخيمة في القرون الخمسة الأخيرة المؤسسة على الاستنارة الدهرية، وكلها وخيمة على بقية البشر.

أما العواقب الطيبة بالنسبة للإنسان الغربي

- فأولها: احترام الذات الإنسانية وحمايتها من كل معتد. إلا أن الغرب قصر الذات الإنسانية على المواطن. فمنحه الحرية واحترام الحكومة.

- وثانيها: تأدية تأليه الرغبات إلى التعاون بين المواطنين لإشباعها على نحو فعال في الداخل، وفي الانقضاض على الفريسة الخارجية بدافع القوة الغاشمة.

- وثالثها: تأدية: تأليه الرغبات واحترام الذات إلى جعل المجتمع الغربي مجتمع نمور. فلا يعتدي النمر على نمر مثله، بل على الفريسة. والفريسة الأولى هي الطبيعة. وفجرت تلك النظرة ينابيع العلوم الطبيعية، فضلاً عن استغلال التقنية في الهيمنة على غيرهم.

وأما النتائج الخبيثة:

- فأولها: جعل إشباع الرغبة الإنسانية هو معيار الخير والشر، مما مسخ الإنسان بإقصائه عن ربه وعن القيم والأخلاق والوحي المنزل، وتبديد فطرته بذلك.

- وثانيها: المغالاة في الرابطة القومية والطبقية على نحو همش رغبة الفرد، وأقصى العلاقة بين الجماعات عن القيم والأخلاق، وجعل رغبة الجماعة معيارًا أعلى، بما فتح باب الاستعمار والحروب على مصراعيه.

فالغرب عرف عصبيتين: عصبية القوم على الفرد، وعصبية القوم على القوم. وبات الذود عن الجماعة شر حتى لو كان الفرد على صواب. وأدت عصبية القوم إلى استعمار الإنسان لأخيه بالجملة. فكلتا العصبيتين كانت وبالاً وخروجًا على الدين والأخلاق.

- وثالثها: الغلو في استغلال الطبيعة دون وازع أخلاقي. فكان تلويث البيئة ونهب الثروات الأرضية دون حساب، مما قلب توازن الطبيعة في كثير من المجالات. وعمق نزعة الاستغلال والجشع في الإنسان إلى درجة الإسراف. وأدى ذلك إلى مسخ الإنسان باختلال التوازن بين طبيعته المادية وطبيعته المعنوية، بالاستعمار وإشعال الحروب والصراع الطبقي.

وتلزم الإشارة هنا، إلى أننا كمسلمين لم نحقق إنجازات كتلك التي حققها الغرب على الأساس الخاطئ الذي أقام العلاقات الإنسانية عليه. والسبب في ذلك هو بعدنا عن الإسلام خلال القرون الخمسة الأخيرة. وعلينا أن ننتبه إلى أن إنجازات الغرب إلى زوال. فالعواقب الثلاث الوخيمة المذكورة تجب بالقطع

النتائج الإيجابية بالنسبة للإنسان الغربي نفسه. فكل ما قام على فساد فهو فاسد مهما طال أجله. فالحضارة الغربية القائمة على الشك متصدعة. وهي في سبيلها إلى الانهيار، لا لضعف فيها، بل لفساد أساسها، وانتهاكها لكل ما هو معنوي ولكل ما هو مقدس.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: إن كان الغرب بدهريته العلمانية السائدة لا يصلح للاقتداء به، فبماذا نقتدي؟ والإجابة هي: نقتدي بمبادئ ومقاصد وكليات إسلامنا. كما طبقت في صدر الإسلام، فسعد به من طبقوه وأسعدوا غيرهم. فتلك المبادئ تعلو على نسبيات الزمان والمكان.

وأصل أصولها هو: **التوحيد**. وأول المبادئ المتفرعة من التوحيد، أن الظاهرة الطبيعية حقيقة لا تنكر. لكنها ليست هي كل الوجود. فالقيم لا تحس، لكنها أقوى من وجود الأشياء. وهي المحرك لها. وليس صحيحًا أن القيم لا تعرف اليقين. فهي علم له ضوابطه ومنهجه تمامًا كالعلوم الطبيعية. ومن المسخ حصر الطبيعة في المحسوس. والغرب أله الطبيعة كما ألهت الكنيسة نفسها. وليس لدينا في الإسلام مثل هذا التأليه.

وثاني هذه المبادئ أن رغبات الإنسان أحوج ما تكون للانقياد **بالقيم المعنوية** لقابليتها للطغيان. ويجب التأكد من أن إشباعها لا ينتهك القيم. وما الشريعة إلا تطبيق القيم على الظواهر الطبيعية. والطبيعة خير. والشر لا يكمن فيها، بل في استعمالها. والروحانية في الإسلام هي طلب المادة على مستوى كافة الأنساق الإنسانية العمرانية من الفرد إلى الأمة، ضمن قيود وحدود مستمدة من ملكوت القيم، تكفل حسن استثمار الطبيعة بالتعاون والتآخي والمعروف بين كل البشر.

وثالث هذه المبادئ هو **صورة الإنسان المستخلف**، مقابل صورة الإنسان في المخيال الغربي كقلعة محاطة بسور ضخم وأبراج مدججة بالسلاح في مواجهة الخارج، لا ينبع قانونها إلا من ذاتها. وذاتها هي رغباتها. وعلى العكس يتصور التوحيد إنسانه حصنًا مفتوحًا على العالم أجمع، يشع في كل اتجاه. وهو مقيد بالقيم النابعة من توحيده، يبني حضارة، وينشد السعادة للجميع.

ويرى الغرب أن علاقة إنسانه بغيره شر لازم، لأن الأصل في العلاقة هو استقلال الذات. وتقوم التربية الغربية على مبدأ تناقض المصالح، واختبار تعديات الغير لموازنتها. فالسلام عنده ليس إلا توازن القوى، بمعنى السعي لأن يكون ميزان القوة لصالحه. أما التوحيد فينظر إلى إنسانه في علاقته بغيره يتحرك وينفعل معه، ليحدث فيه ما هو إيجابي، فيقلب وضع غيره من الجوع والجهل والخوف والبؤس إلى

الشبع والعلم والطمأنينة والسعادة. فمفخرة الغرب بعدم التدخل الحكومي إلا لمنع العنف الظاهري، يقابلها في الإسلام مفخرة التدخل للتوصيل إلى الجنة.

وبينما يرى الغرب أن إنسانه هو المبدع الذي يصدر الجمال عن ذاته المؤلهة، وما الجمال إلا تعبير الإنسان عن ذاته، يتصور التوحيد إنسانه على أنه المكتشف للجمال، لا المبدع له. فالجمال كامن في القيم والسنن الربانية. وهو لا يكتشف المعاني الكامن في القيم لذاتها بل رجاء وجه الله. فالغربي يرى نفسه قادرًا على كل شيء، فتتفجر لديه إرادة السطو الدنيوية، إلى أن يتحطم على صخرة التناقض. أما المسلم فيتحرك بالتوحيد ليحقق إرادة الله وأمره في البشر أجمعين. وإن غاب عنه ذلك اليقين فإنه يخمد ويصير فريسة لغيره. ولكنه لا يتحطم أبدًا. وتظل صحوته بالتوحيد واردة على الدوام

ثانيا: مفتاح بناء مفهوم توبة الأمم في لسان القرآن الكريم

مفتاح نموذج قوم يونس

يقول الله تعالى في سورة يونس : وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَاتِ فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ . فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (94) وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (95) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ (96) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ (97) فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (98) وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ (99) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ (100) قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ (101) فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (102) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُواْ كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ (103).

المضامين الدلالية لهذا النموذج الفارق الواصل:

أ- **الحتمية الوجودية لزوجا الإيمان التوحيدي والدهري:** سنة الله تعالى في الأمم أن يؤمنوا به بزوج من الإيمان: الإيمان عن اختيار حر مسؤول وهو ما أمر الله تعالى به عباده وارتضاه لهم، وهو من نصيب المفلحين والإيمان به لدى رؤية العذاب الأليم وهو من نصيب الخاسرين . وسؤال النبي الخاتم من قبله ينصرف إلى سؤال من سبقوه من الرسل كما بين القرآن ما دعوا الناس إليه. وبه وبما تنزل عليه من الهدي يتحقق لديه اليقين القاطع، بأمور أربعة متلازمة:

- أولها: تضافر الآيات البينات الموحى بها والمبثوثة في السماوات والأرض على ما به يبين الحق والباطل بحجة قاطعة لله على عباده كافة .

- وثانيها: استحالة إتيان البشر بما يماثل ما امتن الله تعالى عليهم به من نور الوحي المنزل على كل انبيائه في كل الأمم في كل زمان ومكان .

- وثالثها: استحالة أن يتحقق إيمان يعتد به عند الله تعالى بالإكراه من بشر لبشر مهما كان صلاح من يبتغي ذلك حتى لو مبتغي ذلك هو خاتم رسل الله وأنبيائه . فهو من جهة غير مأذون له من الله .وهو من جهة أخرى عاجز عن ذلك لانتفاء مشيئة الله تعالى أن يؤمن من في الأرض كلهم جميعا . وبذا لامطمع لأحد من البشر في تح صيل إيمان البشر بالإكراه ، ولا استقامة لمن يسعى إلى ذلك لمخالفته لإرادة الله تعالى .

- ورابعها: دلالة نموذج قوم يونس على أن عدم إجماع أية أمة على الدخول في دين الله بالتوبة الأمتية إليه، إنما هو باختيار منهم ، لا بقدر محتم فرضه الله عليهم . فهاهم قوم يونس بلغت بهم اللجاجة والعناد الحد الذي حق عليهم به العذاب بسنة الله تعالى الواحدة في كافة الأمم، ثم فاءوا إلى الحق وآمنوا أجمعين عن اختيار حر ، فنفعهم إيمانهم . وصاروا نموذجا تقوم به الحجة على بقية الأمم . فبإيمانهم من بعد كفر كشف الله عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعهم إلى حين . وظلوا نموذجا دالا على سقف الصلاح الذي يمكن للأمم بلوغه فيما لو تداركوا أمرهم وتحولوا من تكذيب الرسل إلى تصديقهم قبل نزول العذاب بهم . وامة يونس تلك تظل بذلك مثالا للحض على الفيئة الأمتية، وعلى الندرة البالغة لماكاة بقية الأمم لها.

وخلاصة القول أن الله تعالى لا يقبل إيمانا قائما على الإكراه، وينكر ذلك على من يسعى إليه، فضلا عن عجز من يسعى إليه عن تحقيقه لمخالفته لإرادة الله تعالى أن لا يعبده الثقلين إلا عن اختيار حر مسؤول . فما كان لنفس أن تؤمن غلا بإذن الله. وبالاختيار الإنساني للضلال يطبع الله على قلبه، ويجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء . فمقتضى الإيمان عن اختيار حر مسؤول أن يتزين اختياري التكذيب بآيات الله والإيمان به مع هداية الإنسان بكل أنساقه نجدي الخير والشر ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة.

وسنة الله تعالى في الأمم هي: إقامة الحجة عليهم بآيات بينات وبنذر وإمهالهم إلى أجل يعلمه جل وعلا أجلهم له. ودرس التاريخ أن الأمم المكذبة تتلهى بالأمل حتى يأتيها مثل أيام الذين خلوا من قبلهم، فيحق عليهم العذاب ويذهب ريحهم، وينجي الله تعالى رسله والذين آمنوا معهم.

والنموذج المقدم هنا يستهل ببيان أن أولى الأمم بالتوبة هم (أمة الإجابة) لا أمة الدعوة . فالمثال المقدم هو لبني إسرائيل بوأهم الله تعالى مبوأ صدق ورزقهم من الطيبات : التوراة بما فيها من الهدى والمن والسلوى والنجاة من عذاب فرعون وملئه . ولم يختلفوا إلا من بعد ما جاءتهم البينة . فتفرقوا في دينهم وحرفوا الكلم عن مواضعه ومن بعد مواضعه ، وفرقوا بين الله ورسله ، وآمنوا ببعض الكتاب وفرحوا بما عندهم من علم ، والآيات دالة على وحدة سنة الله تعالى في الأمم . فمن يشك مع وجود القرآن فهو من الخاسرين . وفي التيئيس من إيمان من يصرون على الكفر حض على رعاية حمى اجتناب أية شبهة للإكراه في الدين . وهو منهي عنه حتى ممن لا يتصور صدوره منه، مما عاتبه ربه ببخع نفسه أسفاعلى عدم دخول من لم يؤمنوا بما أنزله الله عليه

وقوم يونس استثناء من كافة القرى التي أهلكهم الله من حيث كونها آمنت إيمانا يعتد به خالصا لله قبل معاينة العذاب أو عند أول المعاينة قبل حلوله بهم . ورفع الله تعالى عنهم عذاب الخزي هو كشفه عنهم العذاب الذي وعدهم يونس أنه سينزل عليهم ولم يروه، أو رأوا علاماته دون عينه، ومتعهم إلى حين بعد أن كشفه عنهم ، فمتعهم في الدنيا إلى حين معلوم قدره لهم . ومن المهم ملاحظة أن حالة قوم يونس حدثت بعد فقدهم نبيهم .

وفي **توبة الأمم** يتعين مراجعة الفهم الدارج لحديث افترق اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافتراق النصارى على اثنتين وثلاثين فرقة والزعم بالقول بأن أمتنا ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة (وفي

تفسير فتح القدير للشوكاني نقرأ عقب إيراد هذا الحديث أنه في المسانيد والسنن والكلام فيه يطول . وقوم يونس عرف الله منهم الصدق في التوبة فتاب عليهم . وقعد يونس في الطريق يتتبع أخبار قومه فحدث بانهم آمنوا وصرف الله عنهم العذاب . فقال : لا أرجع إلى قوم قد كذبتهم ، وذهب مغاضبا أي مرغما .

ب-انتفاء التصديق القرآني على فرية اختصاص الله أمة القرآن بسنة مفارقة لسنته في الأمم الخالية وقابليتها بالتالي للدورات الأمتية: الدلالة القرآنية على ذلك تستعصي على الحصر يكفينا منها الدليل المبين في سورة التوبة وظهيره المبين في خواتيم سورة محمد .

يقول الله تعالى : في سورة التوبة : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ (38) إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (39) إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (40) انفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (41) لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاَّتَّبَعُوكَ وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (42) عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (43) لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (44) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (45) وَلَوْ أَرَادُواْ الْخُرُوجَ لأَعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ (46) لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ولأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (47) لَقَدِ ابْتَغَوُاْ الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ الأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (48)

فهذه الأمة مكلفة لا مشرفة. وهي قد لا تخلو من: السابقين والمقربين وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال والمنافقين المرجفين الجدليين.

وفي خواتيم سورة محمد نقرأ قول الله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (33) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (34) فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (35) إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (36) إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (37) هَاأَنتُمْ هَؤُلاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (38)

والآيات تصرح بإمكانية الاستبدال. الفتنة : غواية الإكراه في الدين لدى توهم القدرة على ذلك ، والاستكانة إلى سعي الغير لإكراهنا في ديننا لدى توهم أن لأحد من الخلق مشيئة مع مشيئة الله مضادة لها. ويتعانق الأمر بالنفرة في سبيل الله بابتغاء كافة الأسباب التي تقلص دائرة وضعية الاضطرار ، وتوسع دائرة دفع العدوان على حرية العقيدة ، مع اليقين بعفو الله تعالى عن المضطر غير باغ ولا عاد وقلبه مطمئن بالإيمان ، وعدم الرضا بالحياة الدنيا من الآخرة لقلة متاعها فيها . والخيار الآخر هو : الوقوع في الاستبدال الأمتي بقوم آخرين .

ويستفاد من ذلك بصريح القرآن أن أمتنا مخاطبة بذات سنة الله في الأمم . ومقولة اختصاص الله تعالى أمة القرآن بوضعية مغايرة لبقية الأمم يزيفها القرآن الكريم في هذه الآيات التي ختم الله بها سورة محمد . وفي فتح القدير للشوكاني نقرأ التحذير من إبطال الأعمال الصالحة بالمعاصي والنفاق والرياء والمن . وباب التوبة مفتوح إلا للمصرين حتى نهاية الأجل على الكفر المصحوب بالصد عن سبيل الله . فباب التوبة والمغفرة لايغلق على من كان لايزال حيا . والوهن والضعف منهي عنهما . فالمؤمنون هم الأعلون بوعد الله تعالى لهم . والجنوح للسلم مأمور به حال جنوح المعتدين إليه حتى لو كانت نيتهم المخادعة . فالله تعالى مع المؤمنين ولن يترهم أعمالهم . وما الحياة الدنيا بغير الإيمان والتقوى إلا لهو ولعب . وبالإيمان والتقوى يؤتي الله تعالى المؤمنين المتقين أجورهم ولايسألهم اموالهم التي هي في الأصل من عطائه وهو املك لها منهم . وقيل : لايسألكم أموالكم أجرا على تبليغ الرسالة إليكم . فأمره إلى نبيه هو : ما أسألكم عليه أجرا . ولو طلب الله تعالى من المؤمنين مقابلا ماديا يكافيء النور الذي أنزله إليهم لوقعوا في العنت . فما تكفي كل أموالهم، ولو أمروا بإخراج كل أموالهم لبخلوا ولخرجت أضغانهم وامتنعوا من الامتثال .ومن هنا كان الأمر بما هو في مستطاع البشر من الإنفاق في سبيل الله . وبحكم الحرية التوحيدية بمبدأ عدم الإكراه في الدين، ينقسم ال مؤمنون أنفسهم بغلى منفقين

وبخلاء باليسير من أموالهم . وضرر البخل عائد على أنفسهم في الدنيا والآخرة . وحقيقة الأمر الأزلية : الله هو الغني وأنتم الفقراء . وسنة الله فيكم كما في الأمم الخالية هو : إن تتولوا يستبدل قوما غيرهم ولايكونوا أمثالكم. ولاصغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار . والله تعالى لايغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء . وهذا هو مفتاح دورات الأمم.

التوبة الأمتية من ماذا؟

لمفتاح هذه التوبة ركيزتان أساسيتان يعتبر كل ما عداهما مجرد أعراض ناجمة عن غيابهما أو بالأحرى تغييبهما ، أولهما : الأمة المنية، وثانيهما : اتخاذ القرآن ميزانا واعتبار كل ما سواه موزونا به. ومقتضى ذلك هو عدم رفع الصوت على صوت القرآن والانتهاء عن تحكيم لسان العرب بكل صوره الأدبية والنحوية والصرفية والبلاغية والفقهية في لسان القرآن الكريم .

1- على هامش التعريف بالأمة المنية:

الباب الذي دخلت منه كل أسباب تمدد المرض في جسد الأمة واستعصائه على المعالجة. ذلك البعد هو: تغييب (الأمة المنية). فالنظام السياسي الإسلامي كما بين القرآن الكريم مقاصده ومرتكزاته وكلياته، نظام أمة، تفرز أمة منها، تمثل ضابط الإيقاع لكل من الأم الجامعة، والدولة. وفي غيبة تلك الأمة المنية، وتمكينها معرفيًا وماديًا من القيام بدورها، يصير (القِدْرُ) برجلين. والقِدْرُ لا يستوي على الموقد أبدًا - كما يعلمنا أبو سليمان - وهو برجلين. بل يسكب الطعام، ويستحيل إنضاجه.

ولمحورية هذا المفتاح الذي ساعدني منذ أكثر من ثلاثة عقود، في أطروحتي للدكتوراه، على تعرية كثير من الأساطير الاستشراقية والاستغرابية المعششة في العقل المسلم، إلا ما رحم ربي، عن ما يسمى زورًا وبهتانًا: الفتنة الكبرى في صدر الإسلام، والبرهنة على أن الأمة كانت بسليقتها، وإن بشكل مؤسسي بسيط يوازي احتياجات لحظته الزمانية والمكانية، تعرف وجود تلك الأمة المنية. وكان لتلك الأمة الفضل في حسن إدارة حروب الردة، ومراعاة متطلبات حق الدفاع عن الثغور وحق الأجيال القادمة في ترتيب وضعية الأرض المفتوحة بالإسلام بإبداع حضاري في إنزال القرآن على الواقع، وفي إدارة حكيمة وعبقرية، لتداعيات عدوان المتمردين على إرادة الأمة بقتل ذي النورين (عثمان بن عفان) رضي الله عنه، تمخضت عن رد أمر الشورى إلى أهل الحل والعقد في الأمة، وحفظ الفتوح الإسلامية.

ولا يتسع المقام هنا لمزيد من التفصيل لما بيناه في مئات الصفحات من قبل في أطروحتنا للدكتوراه. لكن إلقاء نظرة خاطفة على المنظومة القرآنية لهذا المفتاح، أمر يستحيل التغاضي عنه. فلنمسك بهذا الخيط القرآني. يقول الله تعالى: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ} (آل عمران: 110). هذه هي قاعدة مثلث النظام السياسي العمراني الإسلامي. وخيرية الأمة ليست تشريفًا ولا تكريمًا، ولا خاصية وجودية ملازمة لها. إن منطوق الآية الكريمة هو: قضى الله أزلاً تكليفكم بأن تكونوا خير أمة أخرجت للناس. والدليل القرآني الدامغ على ذلك هو قول الله تعالى: {هاأَنتُمْ هَؤُلَاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ"38"} (محمد : 38)، وقوله تعالى: {إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (التوبة: 39).

فالأمة مأمورة بالوفاء بعهد الله وبأداء الأمانة، وبالإنفاق في سبيل الله، وبالجهاد في سبيله. فإن هي لم تفعل، فإن الله تعالى يبين لها أن سنته في خلقه هي: استبدال الأقوام والأمم. ومن بديع نص آية آل عمران جمعها بين ذلك التكليف الرباني لأمة النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم، وبين لفت نظرها إلى عبرة من كانوا قبلها. فلو آمن أهل الكتاب لكان خيرًا لهم. وهم ليسوا سواء.

ومنهم من سيستجيب للحق ويدخل في دين الله الحق، وأكثرهم فاسقون، لن يألو تلك الأمة خبالاً، ولن يتوقفوا أبدًا سرًا وعلنًا عن الكيد لها، وعن السعي إلى ردها عن جادة صراط ربها. وقاعدة مثلث النظام السياسي العمراني الإسلامي إذن هي أمة مكلفة برسالة إنسانية عالمية، بحاجة دائمة إلى إعداد العدة للخروج بالدعوة إلى السلام والعدل والإحسان والحق للإنسانية في كل زمان ومكان. وهي بالتالي بحاجة إلى من يفقهها في دينها وفي واقعها، وإلى من يساعدها على إزالة خبث ونفايات القابلية لمحاكاة أهل الكتاب في قبول بعض الحق، ونبذ البعض الآخر، وإلى من يصلح ما قد يثور من خلافات بين طوائفها.

ومن هنا يأتي الضلع الثاني من هذا المثلث، والمعبر عنه في قول الله تعالى: {وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} (آل عمران: 104). وتشير هذه الآية الكريمة بوضوح بالغ إلى أمة مخصوصة من الأمة العامة. فهي ليست (على الأمة) بل (من الأمن) هي إذن أمة منية، لا أمة فوقية. وبقراءة الآية 110 من آل عمران وهذه الآية معًا، نلاحظ وحدة رسالة

الأمتين: الأمة الوعاء، والأمة النابعة المنبثقة منها. تلك المهمة هي: الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. والدعوة إلى الخير تتطلب البيان وإقامة الحجة. والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يتطلبان السلطة والمكنة. وكلا الحجة والسلطة منظوم بناظم إيمان أمة - وليس فردًا أو أفرادًا - بالله.

ومن الملاحظات التي يجب أن لا تفوتنا أبدًا في قراءة هاتين الآيتين الكريمتين، أن الآية المتعلقة بعموم الأمة الإسلامية، استبطنت فلاحها ضمنًا، في حين تضمنت آية الأمة المنية، النص على فلاحها بالتصريح لا بالتلميح. وتعد تلك الأمة المنية بمثابة رمانة الميزان في النظام السياسي الحضاري الإسلامي. أو هي بتعبير آخر، ضلع الزاوية القائمة لذلك النظام، المحدد لضلعه الثالث المتمثل في الدولة التي هي شخص معنوي تعبر عنه السلطة السياسية، التي تحتاج لضوابط لتنشئة عناصرها، ولاختيارهم، وللرقابة عليهم، ولمحاسبتهم، ولمنع تغولهم على مفهوم الدولة ذاته الذي هو أوسع في مقوماته من السلطة السياسية، ومنع تغول مؤسسات الدولة، لكونها تخضع مهما التزمت بالمبادئ، لمقتضيات الاختيار السياسي الذي يفرضه الواقع، على مؤسسات الأمة العامة التي تقوم على المبادئ وليس على الاختيارات الموقفية، بوصفها خير أمة أخرجت للناس.

وعبرة التاريخ الإسلامي تبرهن على محورية دور تلك الأمة المنية بالنسبة لكل من قاعدة مثلث النظام الإسلامي، وضلعه الثاني على حد سواء. فلقد خرج من الأمة رعاع قتلوا ذي النورين، في الشهر الحرام في البلد الحرام ومصحفه بين يديه، وقراره أن لا تراق نقطة دم واحدة من دم أمته بسبب الدفاع عنه. فالأمة العامة بحاجة إلى من يفقهها في أمر دينها ودنياها، ويأخذ على يد من يعتدي عليها. والسلطة السياسية بحاجة إلى من يرشدها في إنشائها، وفي تسييرها، في الداخل والخارج، ويأخذ على يدها حين تنحرف باتجاه الطغيان والتأسيس للاستعباد.

فلنسأل القرآن عن ماهية تلك الأمة المنية، وحدود دورها العمراني. يقول الله تعالى: {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} (التوبة: 122). وتوجهنا هذه الآية الكريمة إلى كليات: إقامة الأمة المنية. فاعتبار الأمة العامة كلها مغنية عنها هراء. فما كان المؤمنون لينفروا كافة. فالعمران نظام. إذن المطلوب القرآني هو: تنشئة الأمة الفرعية النابعة. وتلك الأمة تتشكل من نفر أفراد نافرين في سبيل الله، يمثلون كل طوائف الأمة العامة. وهم لا يؤهلون في مقاعد تعليم منغلقة، بل في معامل تنشئة كونية بالسير في الأرض، للتفقه في الدين. والدين منهج حياة شامل لتحقيق الفلاح الإنساني الفردي

والجمعي على كافة أنساق العمران الإنسانية بدءًا بالفرد مرورًا بالأسرة والعشيرة والبطون والأفخاذ والقبائل والعمائر والشعوب ووصلاً إلى مستوى الأمم. ووظيفتهم بعد ذلك التأهيل، هي (أن ينذروا قومهم). متى؟ حال احتياجهم إلى الرجوع إليهم. لأية غاية؟ لعلهم يحذرون. تلك هي المنظومة القرآنية لكيفية إنشاء تلك الأمة وإعدادها، وتحديد رسالتها. فهي أمة مؤهلة لأن ترد إليها أمتها ودولتها، ما يغم عليها من أمر الأمن أو الخوف، لتستنبطه عن علم. وهي ليست كيانًا متسلطًا لا على الأمة العامة ولا على الدولة، بل هي: منذر بالحق، لعل من ينذر يحذر الوقوع في حدود الله ومحارمه.

ولنسأل القرآن مرة أخرى عن دور تلك الأمة المنية التي غيبت من نظام أمتنا جزئيًا بعد القرن الهجري الأول، وعلى نحو متصاعد، في القرون الخمسة الأخيرة. يقول الله تعالى: {وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} (الحجرات: 9). وتوجه هذه الآية الكريمة بكل جلاء إلى هيئة جماعية، مكلفة بالسعي إلى إصلاح ذات البين، فيما لو حدث أن اقتتلت طائفتان من المؤمنين. ومكلفة ثانيًا في حال إخفاق مساعيها للصلح، بسبب بغي طائفة بعدم الامتثال للحق، بأن تقاتلها على نحو مشروط بحد هو الفيئة إلى أمر الله. ومكلفة ثالثًا، بعد تلك الفيئة، بالصلح بينهما بالعدل والقسطاس. فالله يحب المقسطين.

وخلاصة هذا الطرح، الذي آثرت الاكتفاء بالوقوف عند كلياته الكبرى، أن أمتنا فرطت في إقامة بنيان نظامها العمراني على هدي كتاب ربها، حينما استدرجت إلى إفك حصر مفهوم الواجب العيني في قيام الفرد المسلم بشعائر العبادات، وبتلمس سد متطلبات نفسه وأسرته المادية، وحصر مفهوم الواجب الكفائي في مقولة سقوط الإثم عن الأمة إن قام بشأنها العام بعض أفرادها، مع التمثيل لذلك بغسل الميت وتكفينه والصلاة عليه ودفنه، وحصر مفهوم الشورى في إسداء النصيحة، وتمييع ذلك المفهوم المركزي في سفاسف لغط هل هو ملزم أم معلم. وكم كنا أغرارًا مغفلين حين ابتلعنا مقولات أن النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم بنى بالمدينة المنورة دولة، وأن القرآن الذي تنزل بمكة كان يركز على بناء العقيدة، بينما ركز القرآن المنزل بالمدينة، على بناء الدولة. فحقيقة الأمر أن النبي صلى الله عليه وسلم، أنشأ في مكة أمة، وترك بالمدينة أمة أفرخت أمة شورها، ودولتها. والغفلة عن هذا المفتاح المعرفي والتعتيم عليه، هما البوابة التي تغولت بها الدولة ممثلة بالسلطة السياسية، على الأمة، بكل ما ترتب على ذلك من ويلات على مدى التاريخ.

2- على ضفاف التعريف بمنظومة الرؤية الكلية القرآنية العمرانية كما يجليها لسان القرآن:

لكل أمة رؤية كلية تنبثق منها منهاجيتها في التفكير وإطارها المرجعي، وسعيها العمراني. وأي خلل جوهري يلحق بتلك الرؤية بتشوهها أو تغييبها يفضي بالضرورة إلى سلبية الأمة وتيه عقليتها وشل فاعليتها الحضارية، وتبديد مفاهيمها. ومعنى ذلك أن الركيزة الأم للفاعلية الحضارية للأمة هي: رؤية كلية مستقرة في ضميرها. فالرؤية الكلية الراسخة في وجدان الأمة بمثابة التربة التي تنبت فيها مبادؤها وقيمها ومفاهيمها وفكرها. والمنبع الصافي للرؤية الكونية للأمة الإسلامية هو القرآن. فهو معين تحديد هويتها، ومصدر إجاباتها على كافة الأسئلة النهائية. وبقدر نقاء تلك الرؤية والوعي بها يتحدد مدى فاعلية ثروة الأمة من المبادئ والمفاهيم والقيم. وضبابية تلك الرؤية تورث السلبية وتسطيح الفهم والخرافة بالضرورة، وهي التفسير الصحيح لما تعانيه أمتنا من تيه. ولتلك الضبابية مصدران: جمود الموروث الفكري والانبهار الساذج بالنموذج المعرفي الغربي القاهر.

ولا مخرج من تلك الضبابية المورثة للتيه إلا بمراجعة نقدية جادة للتراث الإسلامي والإنساني بوجه عام بميزان قرآني جامع. وفي القلب من تلك المراجعة يأتي التنقيب في موارد تشوه الرؤية الكلية الإسلامية، والكيفية التي حدثت بها، لأخذ العبرة، وامتلاك بصيرة إعادة بنائها على استقامة وهدى، باستلهام الرؤية الكلية الكونية الحضارية الفعالة التي أثمرت العالمية الإسلامية الأولى

ما هي معالم الرؤية الكونية الكلية الحضارية القرآنية؟

1- عمود الرؤية الكلية هو الحب الشامل:

تنبثق هذه الرؤية من منظومة الحب الشامل لعلاقة الإنسان بكل أنساقه المجتمعية بالوجود كله ولتلك المنظومة نواة هي صدارة حب الله لحب كل ما عداه. وبتلك الصدارة يتوجه الحب وجهة صحيحة إلى تحقيق الذات الفردية والجماعية بإيجابية واختيار حر متناغم مع كل ما بالوجود. ومن هنا تتألق فطرة الله التي فطر الناس عليها، في دفع الله تعالى الناس بعضهم ببعض، في جدلية النفس الأمارة بالسوء مع النفس اللوامة وصولاً إلى النفس المطمئنة. وضرب الله الحق والباطل. ويذهب الزبد جفاء ويمكث ما ينفع الناس في الأرض، وتغلب قوة الحق حق القوة. ومن هذا الجذر التأسيسي يتم تفعيل مبدأ

الاستطاعة العمرانية، ومبدأ المحاسبة الذاتية الجوانية، ومبدأ الأخذ بالأسباب مع استحضار الوعي بالحاجة إلى الرعاية والتوفيق الإلهي لتحقيق مشيئة الاستقامة. ويمتلك الإنسان ميزانًا فطريًا.

(موارد الخلل في نواة تلك الرؤية الكلية : السرعة المذهلة للفتوحح الإسلامية. ولم يكن بوسع الأمة الإسلامية في صدر الإسلام القيام بعملية تخلية تزيل ذلك الإرث بكامله، وبعملية تحلية تحل محله منظومة الحب في الله ولله في روح الشعوب التي دخلت في الإسلام أفواجًا، بحكم سنن التدرج والاستطاعة.

2- <u>بناء العبادات والمعاملات على ركيزة العقيدة الإيمانية الراسخة الفطرية العقلانية:</u>

يتأسس الظاهر الإسلامي الصحيح على البنية الجوانية القلبية. ومن هنا تتعلق أركان الإسلام جميعًا بتربية الروح الفردية والجماعية المتراحمة. وأسفر ضعف هذا المعلم عن مفارقة التراكم الحضاري المادي المصحوب بتراجع استخلافي روحي. وأخفى الأول الثاني، وعتم على تراجع الأداء الإسلامي الحضاري وتكلس نظام مجتمع الأمة. وبمرور الزمن تفاقم ذلك التشوه العقدي الفكري الحضاري مولدًا أمراضًا حضارية خطيرة يتصدرها: الخرافة، وتوهم إمكانية وجود تعارض بين العقل والنقل. وتغذي ذلك الانحراف على الإسرائيليات والفكر الغنوصي الباطني، والمنطق الفلسفي الصوري الإغريقي، والقراءة التجزيئية المحرفة للقرآن والسنة.

وبرزت قضايا عقيمة مثل: خلق القرآن والخوض في الغيبيات وغيرها من متاهات الاعتزال والتصوف والتشيع وما يسمى علم الكلام. ذلك أن العقل لا يتعارض أبدًا مع الوحي. فوظيفة العقل هي تحرير مدى التوافق بين الفكر الإنساني، وكل من الفطرة والوحي والسنن الكونية. ووحده القصور في النظر وفي فهم مقتضيات الفطرة والوحي والسنن. ذلك أن الحقيقة الكونية ونواميسها مطلقة، في حين أن إدراك الإنسان لها نسبي زماني مكاني وفق السقف المعرفي المتاح له.

3- <u>التركيز على كليات الوحي ومقاصده</u>

جوهر الرؤية الكلية القرآنية هو مبدأ: حدود لا قيود. فهي تقدم خطوطًا إرشادية كلية ضابطة للفرعيات. والإنسان المكلف صاحب فطرة يزن بها البر والإثم لا سلطان لأحد عليها، بما يجعل مفتاح التغيير هو تغيير ما بالنفس. أما إحاطة الإنسان بكافة الحقائق والنواميس فهي نسبية وتغيرية عبر الزمان والمكان. ومن هنا تأتي محورية الوعي بالكليات والمقاصد القرآنية. وجماع تلك الكليات والمقاصد وارد في قول

الله تعالى: {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} (النحل: 90). ويحتاج الإنسان للحكم على النوازل إلى منهاجية عقلية تستحضر مقاصد الفطرة والوحي وأصول كل من الشريعة وعلوم فطرة الاجتماع الإنساني، وإخضاع الجزئيات النصية والعملية للكليات. فما يستطيع العقل البشري الوصول إليه هو فرضيات محدودة بالسقف المعرفي المتاح، يتعين اعتبارها موزونًا تابعًا لكليات ومقاصد الوحي والفطرة، وليس ميزانًا لها. وضبط الإشكالية النصية والإشكالية العلمية بتلك الكليات هو السبيل للتخلص من الخرافات والتهويمات التي لا تزال تطرح على أنها نظريات، مع إخفاقها في تحقيق المقاصد العمرانية والمصالح المتيقنة أو الراجحة.

وخلاصة القول أن الوحي والفطرة والسنن والعقل كلهم جميعًا من صنع الله. ومن ثم لا مجال لتنافر حقيقي بينهم. ومصدر توهم إمكانية التناقض بين العقل والوحي هو المنطق اليوناني الصوري والفلسفة الأسطورية السفسطائية. ولا سبيل لاستعادة وحدة الأمة وفاعليتها الحضارية دون تخليص العقل المسلم منه ومن آثاره الفتاكة. فذلك المنطق مناقض لجوهر الرؤية الإسلامية القائمة على السعي الإنساني العمراني الجامع. فهو منطق ترفي نظري غارق في الذاتية وفي تخليق الفوارق وتوليد الاختلاف بالهوى. وهو جذر انقسام أمة التوحيد إلى ملل ونحل وطوائف.

ولو كانت الأمة قد ردت ما اختلفت فيه إلى القرآن والسنة دون سوء تأويل ولا تعضية للنصوص، واعتصمت بوحدة الحق، لما انفرط عقدها إلى طوائف وعرقيات، ولم وجد عدوها سبيلاً عليها. إلا أنها للأسف احتضنت الموروث القبلي الجاهلي واليهودي الغنوصي والصوري اليوناني، وغفلت عن التدبر والتنقيب في السنن الكونية، وعن وضع العقل في المقام المرموق الذي وضعه القرآن فيه.

4- <u>الوعي بقابليات الترقي والتدسية اللامتناهيين لدي الإنسان:</u>

يبين القرآن الكريم أن الإنسان قابل للترقي العمراني بالتزام الفطرة السوية والسعي العقلي في الاستفادة من الطيبات المسخرة في الكون واجتناب الخبائث. فلا حدود للإبداع الإنساني والحياة الطيبة في مجال الخير لدى استقامته. وفي المقابل فإنه لا حدود لانحطاط الإنسان ولحياة الضنك والخيبة حين انحرافه عن الجادة وتدسيته لنفسه. ووعد الله الأبدي للبشرية هو: الكشف المستقبلي الدائم لآياته في الأنفس وفي الآفاق حتى يتبين لهم أنه هو الحق. ومعنى ذلك أن الإيمان الصحيح بالوحي، لا يلغي الفطرة ولا يحول دون تحقيق الذات الإنسانية، ولا يلقي على عاتق الإنسان تكليفًا مغايرًا لفطرته التي

فطره الله عليها وللسنن الكونية. فالإنسان في هذا المنظور مكلف مكرم بحمل الأمانة، مطالب بقراءة الوحي المسطور والكون المنظور، لعمارة الأرض ولتحقيق السعادة في الدارين: الدنيا والآخرة. والرؤية الكلية القرآنية رؤية لخلافة إنسانية في الأرض على منهاج النبوة.

ولو قدر لأجيال الأمة التي تلت جيل الصحابة أن التزمت تلك الرؤية الكونية القرآنية، لما وجد مجال لتمزق الأمة شيعًا وأحزابًا، ولما تمكن الفراعنة والكهان من تضليل جماهيرها بطلاءات علمانية ليبرالية ديموقراطية أو بشموليات مادية أو دينية تلبس الحق بالباطل، وتقدم ما هو ذاتي ملفق على أنه هو الحقيقة. وهنا يأتي التحذير النبوي من تحديث أي قوم بما لا تحتمله عقولهم، لأنه يكون فتنة لبعضهم على الأقل. وهذا هو ما حدث حين تعرض العقل المسلم لطوفان الموروثات القبلية واليهودية والغنوصية الباطنية بما يحمله من غشاوة وتحريف وتشوهات وأنانية تسلطية استبدادية، مما أضعف الصلة بينه وبين القرآن ومع الرؤية الكلية النابعة منه، وتفهم المكنون القرآني المتكشف وتنزيله على الواقع المتغير والمتطور عبر الزمان والمكان. وبذا تحول الخطاب في الأمة من خطاب حب وتكريم وتحقيق للذات بما أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، إلى خطاب تحقير وتسفيه وإذلال وبطر للحق وغمط للناس

5- الوسطية الفطرية السوية:

تكشف المعالم السابقة للرؤية الكونية القرآنية عن كونها رؤية تقوم على الوسطية التي لا تعرف التفريط ولا الإفراط في السعي الإنساني الفطري السوي في الكون المسخر لاستخلافه بما يحقق الإبداع الإنساني العمراني الفردي والجماعي. وبذا لا تكون التضحية إلغاء للذات بل تحقيقًا لها. ويتسع بذلك مفهوم الصدق والصدقة بحيث يكون كل فعل يلبي حاجة إنسانية حقيقية صدقة. فحتى الاستمتاع الجنسي المشروع يدخل في عداد الصدقة. ويصير ميزان العمل هو النية. وخير النية هو: إقامة الوجه للدين حنيفًا. فتلك هي فطرة الله التي فطر الناس عليها. وذاك هو الدين القيم. ولا تبديل لخلق الله. وفي ظل تلك الرؤية يصير الله تعالى هو مصدر الخير كله والداعي إليه والمعين عليه والملهم له. ويصير الشيطان هو مصدر الشر كله. وبذا يميز الحق من الباطل. فالعدل والإحسان والرحمة والسلام والحق هي دعوة الله للإنسان. والظلم والفساد والطغيان هي دعوة الشيطان للإنسان. والإنسان حر مكلف مسؤول يحيا عن بينة ويهلك عن بينة. وعلامة الاستواء والوسطية الإنسانية هي الاستقامة على صراط الله. وعلامة التدسية هي الانحراف عنها إلى مهاوي الشيطان.

وتنتظم تلك الوسطية الفطرية بمنظومة حب لله ولرسوله ولكل ما أمر به الله، بغض واجتناب لكل ما نحى عنه من الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وفي الصدارة منها غواية الشيطان واستذلاله والقنوط من رحمة الله وعفوه، ومن قبوله، وظلم النفس، وظلم الغير، وولاية الشيطان.

ومع محورية الذكر والتواصل بين الإنسان وربه بوصفه هو الأساس الوجداني الفطري الذي يحقق به الإنسان ذاته ويضبط علاقته بالمخلوقات، فإن من الهدي النبوي تجنب الغلو في الدين، والنهي عن صوم الدهر وعن الرهبانية، وعن الصلاة طوال الليل. ومن ذلك أيضًا ربط العبادات بالمعاملات. فرب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش. ولا صلاة لمن لم تنهه صلاته عن قول الزور والعمل به. وهكذا يتحقق التوازن بين حق الروح والجسد وبين حق الفرد والجماعة. وتنعكس تلك الرؤية الكلية على كافة المفاهيم والقيم القرآنية المأمور بها، وكافة الخصال والقيم السلبية المنهي عنها.

ويولي القرآن اهتمامًا خاصًا بتكريس تلك الوسطية الفطرية على مستوى الأسرة، ويفصلها، بوصفها المؤسسة الرئيسة في كيان الأمة. ولو قدر للوسطية القرآنية البقاء في مؤسسة الأسرة لظلت الوصاية للأمة على الدولة وأجهزة الحكم، ولما فسدت السلطة. ولعل الفضل فيما بقي من كيان الأمة حتى الآن رغم أعاصير مستنقعات الفساد والاستبداد، والهجمة العلمانية الغربية الضارية عليها، يرجع إلى عدم القضاء على مؤسسة الأسرة المسلمة.

والمتأمل في العبث الغربي المعاصر بوظيفة المرأة وبمؤسسة الأسرة يدرك الأهمية المحورية للوسطية الإسلامية. فلقد أعفت تلك الحضارة السائدة الرجل من مسؤوليات الزوجية والأبوة، وضربت وظيفة الأمومة في مقتل، وحولت المرأة إلى سلعة متعة عابرة. وساهم غياب الوعي بالرؤية الكلية القرآنية في ابتلاع المسلمين طعم تلك الحضارة الغربية الظالمة، والإقدام على التعرض لوسائلها الترفيهية المحبوكة دون مناعة فكرية وتربوية وجدانية تكشف الغث من الثمين.

6- <u>الغائية الأخلاقية</u>

تقوم الرؤية القرآنية الكلية على أن الوجود لم يخلق عبثًا بل لغاية تقتضي التعامل الإنساني الأخلاقي مع كل مكوناته. بنواظم المودة والرحمة والمعروف والإحسان. ومعنى هذا أن الرؤية الكونية الحضارية القرآنية رؤية توحيدية إعمارية غائية أخلاقية تفعل الفطرة السوية وترشدها سعيًا لتحقيق الحياة الطيبة والسعادة في الدنيا والآخرة. والجماعة والأمة في تلك الرؤية جزء من فطرة الوجود الإنساني التي لا

وجود للفرد فيها دون الجماعة، ولا للجماعة دون الفرد، ولا استواء لبنيان احدهما إلا باستواء بنيان الآخر. وكل خطاب قرآني للفرد هو خطاب للجماعة. وأساس أخلاقية الفعل الإنساني الهادف ثلاثة: قوة اليقين الإيماني، والعمل المثمر، وفاعلية العمل بصلاحه بالتزامه بالسنن الكونية وبالعلم وبابتغاء الأخذ بالأسباب والرقابة الجوانية والمجتمعية (ص153-166).

7- <u>الإنسانية الجامعة:</u>

لا تقف الرؤية الكونية القرآنية عند حد بيان هوية المسلم، بل تحدد تلك الهوية ضمن الهوية الإنسانية الجامعة. ومن هنا يختلف مفهوم الأنا والآخر في منظورها عن أية رؤية كونية أخرى. فالأنا المسلم متكامل مع كل آخر. ويوحد بينه وبينهم الانتماء إلى الكل الإنساني النابع من أصل واحد. وانبثق من الذكر والأنثى بالتكامل التزاوجي بينهما: الأفراد والجماعات والأمم والشعوب المطالبة بالتعارف والتعاون على البر والتقوى وبعدم التعاون على الإثم والعدوان. والأنا والآخر هم قرآنيًا دوائر متداخلة على كل المستويات. وهم وحدة في تنوع، وتنوع في وحدة.

والعلاقة الواجبة بينهم هي علاقة الدعوة بالحسنى وبالحكمة وبالموعظة الحسنة، مع تحري البر والإحسان وحرية العقيدة والتزام العدل حتى في حالة العداء والتنافر. ولا مجال عند الظلم والعدوان إلا لخيار من اثنين: العفو فهو أقرب للتقوى، أو المعاقبة بالمثل دون أية زيادة. وللتحذير من المبالغة في الرد على العدوان يسمي القرآن الرد نفسه عدوانًا. وباب التوبة مفتوح على الدوام. ودعوى الجاهلية نتنة منهي عن الوقوع فيها.. والأمانات واجبة الأداء إلى أهلها. والظلم ظلمات وهو محرم بين البشر. والدماء والأعراض والأموال حرام بمستوى حرمة الحرم في يوم عرفة. التكليف هو الاستطاعة في ابتغاء الخير واجتناب المنكر. والوسطية مطلوبة. فالإسراف رذيلة أيًا كان موضوعه. وحرمة النفس الواحدة مكافئة لحرمة البشرية جميعًا. والأنا المسلم والآخر غير المسلم كيان نفسي قابل للصلاح وللفساد. والأنا المسلم والآخر المسلم يرتبطان بهوية إخوة في الدين وعقيدة ورؤية هي جوهر حياتهم ومآلهم. وكل حق يقابله واجب. وللمرأة مثل الرجل من الحقوق وعليها مثل ما عليه من الواجبات. ولا فضل لمسلم على مسلم إلا بالتقوى.

وتتعدد انتماءات الأنا والآخر في هذا المنظور القرآني، على نحو يجعل الأنا هي الـ (هم) وال (هم) هي الأنا، بوحدة الأصل والفطرة وغاية الوجود ومناط المسؤولية والخلافة في الأرض، والأمانة التي حملها

الإنسان. وفصل القرآن والهدي النبوي تلك الهوية الإنسانية الجامعة ودعا إلى تمثلها. فمن لم يهتم بشأن الأمة غير مؤد للأمانة. ومن لا يبلغ من أمة الإجابة أمة الدعوة وفق الهدي القرآني غير مؤد للأمانة، وكذا من ينقض عهد الله ويبغي الفساد في الأرض ويبخس الناس أشياءهم ويبذر ويسرف ويكذب ويبخل ويكذب بالحسنى ويتكبر ويحرم طيبات ما أحل الله. وبالقول المختصر الفصل فإن الأنا المسلم مطالب في مواجهة نفسه وكل أواخره بالدخول في السلم كافة وعدم إتباع خطوات الشيطان، وبالتزام الصدق واجتناب الكذب الفجور. هذه هي معالم الرؤية الكلية القرآنية الإعمارية للعلاقة بين الأنا والآخرة، وهي على النقيض تمامًا من الرؤية المادية العنصرية الحيوانية العدوانية (ص167-186).

8- عالمية السلام:

تقوم الرؤية الكونية الحضارية القرآنية على مبدأ وحدة السلام الإنساني. فالقرآن خطاب إلى الإنسان، بل إلى العالمين. ولا مجال في ظل هذا الخطاب للعنصريات القبلية والقومية التي تقوم على إقصاء الآخر وعلى الاستعلاء على الأنداد وعلى التمايز السلبي الحيواني بين بني الإنسان. وفحوى الخطاب العالمي القرآني هي التنوع في إطار الوحدة الإنسانية المتراحمة والمتكاملة والمتفاعلة من أجل الخير في أمن وسلام. وفي ظل هذه الرؤية تتغلب النفس اللوامة والنفس المطمئنة على النفس الأمارة بالسوء، ليعيش الإنسان كما خلق (في أحسن تقويم). ووعد الله للإنسان في ظل هذا المعلم هو هداية المجاهدين في سبله والمعية مع المحسنين منهم. ولا محل في هذه الرؤية لخطاب الترهيب الإملائي التجزيئي المفكك للقيم الإسلامية، والمبدد للحياة بإلغاء الذات وتكريس السلبية والخوف والإصر والأغلال.

9- الجمع بين المثالية والواقعية:

ليست الرؤية الكونية القرآنية الحضارية رؤية فلسفية حالمة، بل هي مثالية واقعية حقة تستجيش القابليات الإنسانية الإيجابية وتزكيها. والبراهين على ذلك عديدة، أولها أنه: ليس في هذه الرؤية أمر لا يرغب فيه الإنسان وتهفو إليه نفسه. وثانيها: أن العهد النبوي عرف مثالاً واقعيًا لتحقيق تلك الرؤية وفق متطلبات الزمان والمكان. وثالثها هو "برهنة العبرة التاريخية على اختلاف النفوس والمجتمعات البشرية في تحقيق قيم الخير في أرض الواقع".

فلنهضة الأمم أسباب يتحقق بوجودها. ولتدهور الأمم أسباب يحدث بحدوثها. وتلك الأيام يداولها الله بين الناس. ولا جدوى تنتظر من مثالية تفوق قدرة الواقع الإنساني على تمثلها. ولا وزن لواقع إنساني لا يعرف مثالية ممكنة يتخذ منها وجهة وغاية لسعيه العمراني. فالمثالية الحالمة تهويمات فلاسفة. والواقعية المنفصلة عن القيم فضاء ظلم وظلمات وعدوان. وحدها المثالية الواقعية هي حبل النجاة للبشرية في كل زمان ومكان من التردي في ظلمات المادية الحيوانية ودركاتها.

ولا تفترض تلك الرؤية القرآنية في الإنسان العصمة من الخطأ. فقط تدعوه إلى المراجعة والتوبة مما قد يقع فيه من زلل. فكل البشر خطائون. وخير الخطائين التوابون. والتدافع بين قوى الخير وقوى الشر في النفس البشرية حقيقة كونية. ولذا يلزم التمييز بين الرؤية الكلية القرآنية وبين السلوك الإنساني. فالأولى هي الميزان والبوصلة الإرشادية للسعي. ولا موضع في تلك الرؤية للعنصرية الحيوانية ولا للخيال الرهباني ولا للمادية العدمية العبثية. فهي ساحة حياة إنسانية سوية. ومن العسف نسبة قصور الأمة لدينها وللرؤية الكلية النابعة منه. فسبب القصور هو هجر الأمة لهما في مناهج تربيتها وتفكيرها وفي تفعيلها في واقعها.

وتقوم هذه الرؤية الكلية على منظومة مباديء تتمثل في : التوحيد – الاستخلاف – العدل والاعتدال - الحرية المسؤولة – الشورى .

فالحرية هي جوهر تكريم الله للإنسان. ومن الأهمية بمكان ملاحظة أن القرآن بين في صعيد واحد وحدانية الله تعالى مع اتخاذه عبادًا مكرمين. وجعل الله تعالى التكليف في حدود الاستطاعة دون قيود ولا إعنات. والحرية نوعان: حرية شخصية تتعلق بقناعات الفرد ورؤيته الكلية، ليس لأحد أن يتدخل فيها بأكثر من الدعوة والنصيحة، وحرية تصرف في المجال الاجتماعي محدودة بضوابط السعي إلى التوافق والتشاور وتجنب الضرر والضرار والتعاون على البر والتقوى وعدم التعاون على الإثم والعدوان، وتحاشي الاستعلاء والظلم والوقوع في حبائل الاستبداد والفساد والركون إلى الظالمين. وكلا النوعين من الحرية مترابطان ومتلازمان.

فالإنسان لا وجود له كمجرد فرد. فهو بأصل فطرته لا يوجد ولا يحقق ذاته إلا في جماعة. فالجماعية والجماعة هي أصل الفطرة والوجود. وأخلاقية الفعل الفردي والجماعي تنبع من معين واحد، وهي أساس التوازن وعدم الإجحاف بحريات الفرد ولا بحريات الجماعة. ولباب الحرية هو المسؤولية إن خيرًا

فخير وإن شرًا فشر. فالحرية هبة ربانية في ظل مبدأ: غائية الوجود المرتبة لمبدأ المسؤولية، وللجزاء الحق يوم القيامة، في كون كتب الله عليه الاستبدال، وإنسان كتب الله له الخلود منعمًا أو معذبًا وفق اختياره الأخلاقي الحر المسؤول.

ثالثا : أبرز عواقب غياب الرؤية الكلية القرآنية والأمة المنية

من أهم تبعات غياب الأمة المنية والرؤية الكلية القرآنية الجامعة:

1- تشوهات فكر الأمة الإسلامية، بلبناتها الخمسة: تشوه الرؤية الكونية الكلية الإسلامية، وتشوه المنهج، وتشوه المفاهيم، وتشوه الخطاب، وتشوه دعوى العرقية القومية المنتنة.

2- المكر بالبشر بزخرف القول تزيين المغالاة في مقامات شيوخ الطرائق لدى اتباعهم ومقلديهم، بمخاطبة الناس بما هو فوق طاقة أضعفهم، بخطاب ملتبس، وتفريع ما هو واضح وميسر للذكر، بما يضفي عليه طابعًا كهنوتيًا، بدعوى التنافس في تكثير المعلومات بتخريجات لمعلومات ليس وراءها عمل، تمثل في حقيقة أمرها صوارف عن القرآن بتعبير محمد عبده رحمه الله، وحجبًا على نور بيانه الميسر ربانيًا للذكر، بالاستغراق في بحور ما يسمى علوم البلاغة (المعاني والبيان والبديع: الاستعارة، التشبيه، الكناية، التعريض، المساواة، المطابقة، التورية، اللف والنشر، الالتفات) فما تنزل القرآن لشغل العقل الإنساني بتقرير ما يسمى إعجازه من مثل هذا التقرير، بل ليكون نورًا يهدي به الله من يشاء سبل السلام والفلاح، ليتمثل الإعجاز في استحالة أن يكون ثمة نور في الوجود يشبه نوره، ولا هدى يشبه هداه، ولا كتابًا يشبهه في ابتغاء معرفة الفرقان بين الرشد والضلال.

فما أنزل الله القرآن الذي هو كلمته الجامعة ليتحدى عباده بهم الذين يعلم سبحانه وتعالى أنه لم يؤتهم من العلم إلا قليلاً، وبالقدر الذي يصلح سعيهم في دنياهم فيما لو أحسنوا الاستفادة منه، وطلبوا الزيادة منه بحقها، كلما ارتقوا في أسباب الفلاح. ومن فاتحة القرآن شاء الله أن يجعله كتاب الحرية التوحيدية بتعبير محمد عبد الله دراز، بأن ألهم الإنسان، ينطق بسم الله الرحمن شاهدًا له أنه هو الرحمن الرحيم مالك يوم الدين، معلنًا أن لا معبود ولا مستعان به بالأصالة إلا الله وحده، وطالبًا تأسيسيًا على كل ذلك سؤاله ربه أن يهديه إلى صراطه المستقيم بعلامتها الفارقة الجلية: كونها هي طريق من أنعم الله عليهم، المقابلة لزوج من سبل التدسية والبوار: سبيل المغضوب عليهم (ممن بدلوا نعمة الله كفرًا

وفرقوا دينهم وكانوا شيعًا عن عمد بعد أن بين الله لهم ما يتقون، وفي الصدارة منه: التفرق في الدين وتحريف الكلم من بعد مواضعه)، وسبيل الضالين (عن سبيل التوحيد الخالص ووقعوا في الشرك جليه وخفيه في كل زمان ومكان). وبينت الاستجابة الربانية لهذه الكلمات التي ألقاها الله تعالى لأمة النبي الخاتم ρ، تمامًا كتلك التي ألقاها إلى آدم فتاب عليه واجتباه، والمتمثلة في بقية القرآن من (أل م البقرة إلى آخر كلمة في سورة الناس)،

3- تصوير القرآن على أنه كتاب تكليف مرتبط بالمشقة، لا كتاب هداية ونور مبين :

القرآن هو كتاب الحرية التوحيدية. و الفاتحة هي ناظمها ومحدد معالمها . وبقية القرآن بمثابة استجابة لها. وذاك هو لباب الدين القيم ممثلاً في الهدي الرباني لآدم في الموقف التأسيسي الأول المصاحب للحظة نفخ الروح فيه واتسام تلك اللحظة فيما نبه إليه محمد عبد الله دراز بكونها لحظة (الحرية الكونية) التي تأسست فيها شبكة علاقات الأمر والنهي الربانيين التكليفيين فيما يتعلق باستخلاف الإنسان في الأرض، وهي اللحظة التالية للحظة اختيار السماوات والأرض حين عرض الله تعالى عليهما الاختيار بين الإتيان طوعًا أو كرهًا هو (الإتيان طائعين). وبذا وجدت بيئة ابتلاء بحمل آدم وذريته فيها الأمانة باختيار حر في مجال الأمر والنهي التكليفيين، وصاحب ذلك بيان لطبيعة العلاقات بين الخالق (الروح والعلم معًا منه) وكل (روح أو علم ليسا منه فهما تحريف للكلم عن مواضعه ودعوى زائفة) لكنها لا مناص من قيامها بحكم ماهية الحرية التوحيدية ذاتها.

وبهذا الدين وذاك العلم الخالص وأساسهما معًا: التوحيد جاءت كل الرسل والأنبياء لكافة الأمم عبر الزمان والمكان. وصاحب هذا الدين القيم والعلم الصحيح إنكار من أكثر الناس عبر التاريخ وتماثلت سنة الله تعالى فيهم. وبالعلم الصحيح الذي يهتدي به الإنسان بكل انساقه في ترشيد سعيه في الأرض المحقق للفلاح في الأجل الذي قدره الله له قام عمران التمكين المشروط المحقق لحسنة في الدنيا وحسنة في الآخرة. وبالعلم النابع من العقل الإنساني المكتفي بنفسه سواء كان اكتفاؤه بذاته من مبدأ أمره أو نتيجة الغرور بما حققه نتيجة الهداية بالهدي المنزل من ربه ثم جحود ذلك وادعاء أنه أوتيه على علم عنده والوقوع في فخ الطغيان لتوهم الاستغناء عن الهدي المنزل تمكنت أمم من تحقيق (عمران استدراج) مهيب كان مآله في النهاية هو الزوال بسنة الله الواحدة التي لا تتحول ولا تتبدل ولا تتعدد.
وعلى مدى التاريخ ترددت الأمم بين قسوة القلوب حينًا من الدهر في مواجهة رسل الله إليهم ثم لانت قلوبهم إلى الحق ثم نسوا حظًا مما ذكروا به، وكتبوا الكتاب بأيدهم وادعوا أنه من عند الله وما هو من

عند الله فأغرى الله بينهم العداوة والبغضاء وفرقوا دينهم وبات كل حزب بما لديهم فرحون. وكان ذلك هو ديدن دورات الأمم على مدى التاريخ. ثم جاء القرآن الكريم مصدقًا على الصحيح من كل ما جاءت به الرسالات الربانية السابقة ومهيمنًا عليه وقيما، وبمثابة نبي مقيم إلى يوم القيامة.

4- شيوع مقولة أن كل نبي قبل النبي الخاتم كانت دعوته لآل قومه خاصة.

فتلك المقولة بحاجة إلى مراجعة جذرية. فهي رغم سعة انتشارها وقبولها عبر أجيال تصطدم بما ورد بالقرآن الكريم. وكون رسالة موسى تستهدف في المقام الأول تحرير بني إسرائيل من العذاب المهين من فرعون وملئه فإن مقولة حصر رسالة موسى فيهم أمر لا يستقيم في ظل حقيقة أن أول من دعاه موسى وهارون إلى الإيمان بالله هو فرعون. ولعل الأهم من ذلك أن من ضرب الله بها مثلاً للمؤمنين هي امرأة فرعون. ولعل الأبلغ من ذلك هو أن مؤمن آل فرعون الذي جاء من اقصى المدينة يسعى وسعى للشهادة للنطق بكلمة الحق والدعوة إليها هو بنص القرآن (مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه). وبالتالي لا يصح أن رسالة أي رسول اقتصرت على قومه فيما هو أكثر من مستوى الأولوية على غرار ما ورد بالقرآن الكريم من ذكر أن رسالة النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم هي لأم القرى ومن حولها. فكل الرسل جاءوا ب (لا إله إلا الله). وهي دعوة لكل من تبلغه.

ويلزم القول بأن ما تنزل من الوحي الرباني قبله من عند الله لا معقب عليه. فالمعقب عليه هو سوء التأويل الإنساني وتحريف الكلم عن مواضعه، ونسيان أمم حظ مما ذكرهم به رسلهم وأنبياؤهم مما أوحى به الله تعالى إليهم. والقرآن الكريم جاء بكلمة الفصل الفرقانية المبينة لصحيح كافة رسالات الله تعالى السابقة عليه وإعادة البشرية كلها إلى كلمة الحق الجامعة. وكما كان ثمة معقب على فهم الأولين هناك معقب بالقطع على فهم أمتي الإجابة والدعوة للقرآن الكريم.

فكل فهم إنساني حتى لو كان مستقى من القرآن هو في مقام الموزون به والمردود إليه فيما لو اختلف الناس بشأنه. وبذا يبقى القرآن منفردًا بالقداسة وبصفة الميزان الحق، ويظل بمثابة نفي مقيم في البشرية لا ينفد عطاء مكنونه حتى قيام الساعة.

5- تقزيم مفهوم العلوم الشرعية:

لم يقف ذلك التقزيم عند حد تخليق ثنائية لا أساس لها، بل بلغ حد بناء علوم من خارج القرآن وتعليه لسان العرب على لسان القرآن، وتقزيم مفهوم الفقه. واتجهنا في بحوثنا الأخيرة إلى البرهنة على وجوب

إعادة تصنيف العلوم والانطلاق من وحدة المعرفة، وتحرير مفهوم (العلوم الشرعية) من التقزيم فيما هو أقرب للتفسير والفقه الفروعي وأصوله وعلم الكلام وتأسيس مفهوم جديد هو (العلم النافع) المصدق عليه قرآنيًا الجامع بين: الهدي المنزل الموجه للسعي الإنساني في الأرض ولأصول التدبر في الكون واستخلاص القوانين العلمية الكفيلة بإشباع حاجات الإنسان الوجودية المادية والروحية واستعادة الوعي بشمول مفهوم العبادة لكافة العلوم المحققة للخير الإنساني والوقاية من الشر كما هما مبينين في القرآن وتخليص شرائح من العقل المسلم من مظنة وجود علوم دنيوية وعلوم دينية بما لتلك الثنائية من خطر داهم عبر ثنائية **الدين/ الدنيوي** المؤدية تارة للاستهانة بعلوم العمران وتارة للتضحية بضوابط العمران التمكيني بدعوى الفصل بين العلم وكل من الدين والقيم.

وربما يمثل التخلص من مقولة أن علوم الشرعية هي أسمى العلوم مقاما ربما تتطلب مقولة شيخنا هذه نوعًا من الضبط لكي لا تكون بوابة خلفية للتملص من الإضاءة المعرفية التي قدمها المتمثلة في حاجة الإنسان إلى الجمع بين العلم بشؤون سعيه في الأرض ومعرفة ربه ونفسه والكون. فمعرفة الشرعة والمنهاج المنزلين هي بمثابة معرفة الميزان المتعين العلم به على نحو يكفل عدم تخسيره ولا الطغيان فيه لدى معايرة كل قول وكل فعل إنساني به.

ورغم تلك الأهمية البالغة لمثل ذلك الميزان فإن العلم به يظل نسبيًا ومفتوحًا أمام متصل يبدأ من: التوفية بالحق وينتهي بالتطفيف وبينهما أنماط عديدة من بينها: القسط والعدل والإحسان والطغيان والتخسير. وفي القول بسمو تلك العلوم على العلوم المتعلقة باستكشاف آيات الله في الآفاق وفي الأنفس عدوان على ذلك الميزان ذاته. فمعرفة الهدي الرباني ومعرفة شبكة العلاقات بين الموجودات التي يدور كل منها في فلك مكنون، بمثابة (زوجين معرفيين) لا يصح وصف معرفة ما بكونها علمًا نافعًا على الحقيقة إلا بجمعها بينهما.

والبحث بالتالي يجب أن ينصرف من وجهة سؤال (أيهما أشرف) إلى سؤال: أيهما أحق بالقوامة على الآخر؟ وما شروط تلك القوامة ومسؤولياتها وآفاق محاسبة تلك العلوم ووزنها بالقرآن. ومن البدهي أن استقامة تلك العلوم قبولها للمراجعة الأوابة في ميزان القرآن هي شرط قوامتها بالحق. وبما أن فاقد الشيء لا يعطيه فإن إصلاح أعطاب العلوم المسماة: الشرعية هو الشرط الاول لإعادة بناء علوم: القران المعرفي التي يرجى أن يبث من زوجيها بإذن الله تعالى: علوم النكاح العمراني وبيان الرشد المعرفي وتحقيق البلاغ المبين في بيان: زخرف القول وتعرية علوم الثنائيات المتقابلة والسفاح المعرفي.

فالتمسك بفكرة وجود علوم (أعلى) من علوم قد تمثل خطوة على طريق فك أسر العقل المسلم من تلك الثنائية، لكنها لن تجعله بعد أن يقلع منها يحط بعيدًا عنها ولا أن يصل إلى مرتقى (علوم الزواج المتكاملة). ففي قانون الاستخلاف لا غنى عن علوم الميزان وفي ذات الوقت لا غنى عن ما يوزن بذلك الميزان من السعي الإنساني في الأرض على متصل: الموازين الإنسانية الثقيلة / الخفيفة.

6- حصر مفهوم (الفاعل المكلف في الإنسان الفرد):

لعله من المهم هنا التنبيه على الخلل في علوم الأمة بوضعها الراهن لقيامها على حصر مفهوم (الفاعل المكلف في الإنسان الفرد). فعلى الرغم من محورية الفرد وكوننا قد خلقنا الله فرادى وسنأتيه يوم الدين فرادى كما خلقنا أول مرة فإن قدرة الفرد على الطغيان بمفرده وقابليته للاستضعاف بمفرده غير متصورة بحكم فطرته الاجتماعية وطول أمد طفولته وعجزه في كل أحواله عن تغطية كل احتياجاته – حتى على مستوى الضروريات - دون الركون إلى آخرين. وبهذا المعنى فإن ثمة حاجة ماسة للانتقال بعلوم امتنا جميعها إلى مستوى: علوم الأنساق العمرانية الربانية الجعل والإنسانية الجعل، واعتبار كل نسق بمثابة (نفس إنسانية مؤسسة على زوج ومتكاثرة وقابلة لاتخاذ موقع ما على متصل الأزواج المتكاثرة / الثنائيات المتنابذة).

7- مقولة النصوص متناهية والوقائع لامتناهية

القرآن الكريم ليس نصًا كما توهم كثيرون بل هو نور مبين. والفارق الجوهري بين مفهوم (النص) ومفهوم (النور) أن الأول قد ينفتح باب التوهم في ظله إلى مظنة أن الكلمة الربانية المطلقة المحيط علمها بكل ما بالوجود تماثل في قليل أو كثير (الكلمة الإنسانية) النسبية التي تعاني من حمولة التاريخ والتعدد في معطيات كل زمان ومكان.. وعبر هذا الوهم تولدت أعطاب مركبة كثيفة التناسل جرى تحت تأثيرها تحكيم (اللسان العربي) الإنساني النسبي في (اللسان العربي المبين) وتضخمت خزائن أسفار أمتنا بمقولات: المحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ، والعام والخاص وما شابه ذلك.

ولعل المخرج الوحيد من ذلك والإمساك بمفتاح قرآني لإعادة بناء العلوم هو التنبه إلى أن مقابل (اللسان العربي المبين) ليس هو (اللسان العربي) بل هو (النور المبين). والنصوص الإنسانية متناهية بالقطع لنسبيتها. وأما الكلمة الربانية فهي نور ترى به المحسوسات وهي كلمة لا تنفد حتى لو استعان من يكتب من معينها بمداد بحر يمده من بعده سبعة أبحر. وتلك الكلمة النورانية لا ترى بها المحسوسات فقط بل

يرى بها ما شاء الله تعالى أن يكشفه من الغيب فيما نزله على رسله وفيما أذن بكشفه من مكنون آياته في الأنفس وفي الآفاق الموعود ببلوغها حد تبين (البشرية) أن كلمة الله تعالى هي الحق، وأن الله هو الحق المبين. زد على ذلك أن نصيب الإنسانية من نور تلك الكلمة له متصل معرفي يمتد من (ما يكشفه الله تعالى لمن ينعم عليهم من عباده من مكنون القرآن) إلى (ما يجزي الله به الظالمين من جعل القرآن عليهم عمى). ويكاد نصيب اللسان العربي (ومن باب أولى: بقية السنة البشر) التي تسطر بها العلوم مترددًا بين نوعين من (النور) في رؤية الأشياء أولهما: النور الناتج عن النار. وثانيهما: نور الشجرة النابتة في طور سيناء. وكلا النورين الإنسانيين النسبيين ليسا سواء. فالأول تصاحبه نار الابتلاء به ثلاثي الأبعاد: قد يصطلي بجذوة منها في ليلة شديدة البرد وقد تحرق. وقد يجد من لا يكون همه هو جذوة منها: عليها هدى. والهدى الذي يكون عليها تابع بالضرورة لبقاء جذوتها النارية مشتعلة. ونورها هو غاية ما يطمح فيه آدمي لم يحز بعد على نصيب من الهدي الرباني المنزل الكفيل وحده باتباعه بالوقاية من الضلال ومن الشقاء، ومتصل ذلك النور الناري المصدر امتد بصريح القرآن الكريم من (موسى عليه السلام على طرفه الأول) حتى بلوغ قدميه (الشجرة المباركة) إلى (المنافقين). وبالهدى الذي لم يأخذه موسى من تلك النار بل من عند ربه صار هو (الكليم). وبالنور الذي أخذه المنافقون من تلك النار ترددوا أبد دهرهم إلا من تاب منهم توبة نصوحًا بين (المشي فيه) كلما أضاء لهم و(التوقف) حين يظلم عليهم دون التفكر في الانتقال إلى: نور الشجرة النابتة في طور سيناء التي تؤتي أكلها بإذن ربها (طعاما نورانيًا: تنبت بالدهن وصبغ للآكلين) مودة ورحمة وتسبيحًا بحمد ربهم في أرض بثت فيها من الطيبات ومن النعم المستعصية على العد والإحصاء فيما لو كان قلبها هو (لا إله إلا الله. ولا إكراه في الدين. قد تبين الرشد من الغي). وأما الثاني فهو: نور يوقد من شجرة زيتونة خاصيتها الأم هي (الوسطية الجامعة المؤلفة) هي الأوفر حظًا من نصيبها من (النور الرباني) البالغ مقام (مثل نوره) جل وعلا. فلننصت ونرهف السمع خاشعين، حين نريد سؤال القرآن عن بعض مفاتيح بناء مفهوم (النور القرآني).

8- <u>تقزيم مفهومي الدين والنفس</u>

على نحو شل فاعلية النظرية المقاصدية الذاهبة إلى تحديد المشترك الإنساني في حفظ الدين والنفس والعقل والمال والنسل، وتراتبية الضروري والحاجي والتحسيني. ومن الأهمية بمكان مراجعة التعريف المقزم لعلم النفس الذي استوردناه من العلم الغربي الدهري المزيف الذي أسسه فرويد وتلاميذه.

وينقلنا إلى رحاب مفهوم النفس الواحدة التي خلقها الله تعالى وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرًا

ونساءً وأنشأ أنساقًا قرابية تراحمية، وجعل من الماء بشرًا وصهرًا وبالربط بين العلم والهداية والإرادة الإنسانية بات مفهوم النفس الإنسانية يتسع لصنوف عديدة منها: النفس الأمارة بالسوء والنفس الأوابة والنفس اللوامة والنفس الذكية والنفس المطمئنة. والبون شاسع بين مفهوم النفس في القرآن وبين مفهوم النفس لدى فرويد الحاصر لها في: الكبت الجنسي والفاصل بينها وبين القيم والدين والعلم.

ومن نافلة القول الإشارة إلى أن علم نفس يؤسس على الرؤية الإسلامية القرآنية للإنسان، يختلف جملة وتفصيلاً عن علم النفس الدهري السائد والذي من المؤسف أن كثيرين من الباحثين الإسلاميين يجترون مقولاته، ويغفلون أو يتغافلون عن عبثيته وزيفه، وحقيقة أنه تأسس على خرافات مستقاة من سلوكيات مرضى لا يعبر بأي حال عن النفس الإنسانية السوية.

فالقرآن يميز بين: العلم الدهري (علم ظاهر من الحياة الدنيا مع الغفلة عن الآخرة وإنكارها) وبين العلم التوحيدي الذي لا ينفي العلم الدهري بل يحدد مقولاته ومآلاته تمامًا كما يبين مقولات العلم التوحيدي ومآلاته ويحذر من العلم المداهن الملتبس الذي يختلط فيه الباطل ببعض الحق. وتصنيف العلوم جميعًا بهذا المعيار هو الأولى. فكل العلوم في حقيقة الأمر إنسانية بما أن من يحصلها ويوظفها هو الإنسان سواء تعلقت بالبحث في العلاقات بين الأشياء في الأرض والسماء أو تعلقت بالعمران الإنساني وعلوم الاجتماع الإنساني. وهي كلها علوم نسبية مفتقرة إلى الهدي القرآني

ومن المهم كذلك مراجعة مقولة الفروض العينية والكفائية. فهي قد تفتح الباب مجددا للقول بعلو علم على علم ويغفل حقيقة أن الله تعالى ليس كمثله شيء، وأن معرفة الإنسان به إنما تكون بقدر ما كشفه جل وعلا من الغيب النسبي الكفيل بهداية الإنسان في سعيه بأمانة الحرية التوحيدية في الأرض إلى الأجل المكتوب له فردًا وأممًا وأجيالاً حتى قيام الساعة. والقرآن يحذر بكل صرامة من تحميل العقل الإنساني ما لا طاقة له به متمثلاً في معرفة (ذات الله).

فالقرآن لم يجل حقيقة انتفاء المثلية بين الله تعالى وحسب بل نفى حتى: شبه شبه المثلية. والسبيل الوحيد الذي هدى إليه القرآن في معرفة الإنسان ربه هو: التدبر في آيات الله في الكون، وفي القرآن ذاته لمعرفة خالقه ورازقه ومن بيده مقاليد السماوات والأرض وإليه المصير لا التفكر في ذات الله. فذاك كان ولايزال باب ضلال مبين. والقول بإلزامية علوم الحياة لبعض البشر دون البعض ودعوى التخصص

تغفل أمرًا هامًا هو أن للامة الواحدة أنساق تبدأ بالفرد والزوج والأسرة والعشيرة والبطن والأفخاذ والعمائر والقبائل والشعوب وتنتهي بأمتي الإجابة والدعوة، وكل كيان من تلك الكيانات له نظائر وله ما هو أدني منه وما هو أعلى منه وله امتداد في الزمان في الماضي والحاضر والغد الإنساني، وتتفاعل داخل كل نسق وفيما بين تلك الأنساق أنماط عديدة متفاوتة في معرفتها بأساسيات السعي الحياتي العمراني، وفي مدى التزامها بما تعرف..

وبالتالي فإن اختزال المسألة كما هو سائد في ثنائية (الفروض العينية) و(الفروض الكفائية) والقول بعدم شمول التكليف بالاستزادة من العلم النافع بالنسبة لكل إنسان، يتناقض مع وحدة المعرفة ووحدة الإنسان ووحدة الأرض وعدم تصديق القرآن الكريم على أي مدخل قد يؤدي إلى استدامة نخبوية المعرفة والكهانة المعرفية

يمكن القول ترتيبًا على ملاحظتنا السابقة بأنه من الضروري في هذا المقام إعادة النظر في الفهم السائد لمفهوم (فرض العين) و(فروض الكفاية). فالسائد حتى الآن ربط مفهوم (فرض العين) بما هو متعين على كل فرد مكلف من منظومة الأوامر والنواهي الإلهية التكليفية. وهذا المعنى يغفل عن حقيقتين:

- أولاهما: ارتباط قيام الفرد بتلك الفروض العينية على وجهها بالبيئة التي يعيش فيها ومدى استقامة المعرفة بالشرعة والمنهاج وذاك فضاء معرفة أوسع بالقطع من مسؤولية أي فرد في أي زمان أو مكان وهو دليل قاطع على سيولة مفهوم (الفرض العيني) واستحالة الفصل بينه وبين ما يسمى (الفرض الكفائي).

- وثانيتهما وربما تكون هي الأهم أن مفهوم(الفرد) مفهوم مقزم لا ينطبق مطلقًا إلا على الفرد المنعزل والمعتزل. بيان ذلك أنه حتى في أركان ٱسلام الخمسة يشهد الفرد المسلم بالتوحيد مع من شهدوا به ويصوم مع الصائمين ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويحج ضمن سياق البر الجامع والتعاون على البر والتقوى واجتناب التعاون على الإثم والعدوان. وتتعلق روح تلك العبادات جميعا بإرادة الصلاح والإصلاح وبابتغاء معية الله بالبر الجامع مع كل الموجودات.

ومن هنا فإن جفاف وجفاء هذا المفهوم في الفقه التقليدي الذي يربط القيام بأمر الله ونهيه بما يسمى المشقة بدل أن يربطه بنعمة التسبيح الإنساني بحمد الله في كون كل ما فيه يسبح بحمد الله هو مما يتعين استعادة استكشاف مرتكزات إعادة بنائه من هدي القرآن الكريم.

زد على ذلك أن الأنساق الإنسانية الربانية الجعل لأمتي الإجابة التي استجابت لداعيها إلى الإيمان بالله ن وأمة الدعوة المدعوة إلى يوم القيامة للدخول في دين الله يمثل كل منها في هذا المستوى الأدنى ما هو بمثابة (الفرد المكلف). ومن المؤسف أنه قد بات لدينا تخمة في الدراسات التي تدور حول تفاصيل ممجوجة للفروض العينية للإنسان المسلم الفرد وشبه غياب لفقه (الأنساق العمرانية الأمتية) سواء منها الربانية الجعل أو المحاكي الإنساني الجعل. ويبقى الأهم ـ متمثلاً في أن أي فرد مكلف لا يمكن تصور قيامه بحمل الأمانة إلا ضمن منظومة الرعاية التي بينها المعصوم عليه السلام التي فيها كل أمرئ بما كسب رهين وفي الوقت ذاته هو راع ومسؤول عن رعيته.

ومن أبشع أعطاب علوم أمتنا بوضعيتها الراهنة ـ ربطها مقاصد الشريعة بحد الكفاف لا بحد الكفاية الذي لا سقف له بموجب التكليف القرآني باستماع القول و(اتباع أحسنه) ومراعاة التطابق التام بين (القول الحسن المتبع) و(الفعل الأحسن) في معراج حسن الاستفادة الرشيدة من الأسباب الربانية الموهوبة وإردافها بأسباب من السعي المشكور المحتسب بها. وفروض الكفاية بهذا المعنى ينبغي التخلي عن صرفها بأي حال من الأحوال لمجرد وجود عدد من المتخصصين في كل مجال حياتي يكفي لتحقيق حد الكفاف أو ما يسمى: الضروريات. ففرض الكفاية بالنسبة لأمتنا هو: استكشاف سبل استعادة الأمة الواحدة المخرجة للناس بصفة خير أمة. والقيام بهذا الفرض التكليفي الأم يتطلب إعادة كل مفاهيم الفقه الفروعي من داخل الجملة القرآنية وفي نورها.

9- <u>استمراء مقولة أن الرسالات السابقة على مجيء الرسل السابقين على النبي الخاتم كانت خاصة بقوم كل منهم، وأن الشريعة تطورت بتطور الوعي الإنساني وبلغت غايتها في الأمة الخاتمة، والنظر إلى القصص القرآني في ضوء ذلك على أنه لمجرد العظة.</u>

وثمة حقيقة لا يماري فيها إلا مكابر أو مطموس البصيرة هي أن السير في الأرض ابتغاء معرفة حفريات تاريخ السعي الإنساني واستقاء دروسها المعرفية التي يمكن بها ترشيد يوم الإنسانية الحاضر وغدها المرتقب هو المستحيل بعينه، مهما بذل الباحثون من حفر معرفي جاد فيما تبقي من آثار الأمم الخالية المكتوبة. ومرد ذلك هو أن التاريخ يكتبه دائمًا المنتصرون، ويخفون فيما يسطرون كل ما ارتكبوه من بغي وظلم ويصورون ضحاياهم على نحو بشع يسوغ معه لا إذلالهم وحسب بل قهرهم وإبادتهم.

ومن يتدبر في الكيفية التي تكتب به مجامع الأمن القومي المعاصرة في كافة الدول دون استثناء مجريات الوقائع المعاصرة يدرك تلك الحقيقة. ومن هنا فإن القرآن الكريم يبقى هو المصدر الفريد الوحيد الذي يمكن بالسير به في الأرض معرفة مجريات دورات حياة الأمم، بسنة الله الواحدة فيها جميعًا في كل زمان ومكان، ويمكن عبر ذلك السير إعادة استكشاف أصول علم العمران الأمتي المعياري. ورب قائل يقول إن هذا التأسيس يخص المسلمين وحدهم ولا يلزم الجماعة العلمية الإنسانية الدهرية منهجيًا. وهذا هو عين الزيف.

فالقصص القرآني يجلي قانونًا معرفيًا منهجيًا رئيسًا قوامه أن: عمران الاستدراج ممكن بالمفاصلة مع شرع الله ابتداءًا أو انحرافًا بعد بلوغ مرحلة مظنة الاستغناء الإنساني عن الهدي الرباني المنزل وأن مآل هذا العمران هو الانتهاء إلى وراثة أمة أخرى له في النهاية. فالبغي والعلو في الأرض يولد بالضرورة أسباب انهيار الأمم.

وهذا القانون العمراني لا يتعلق بإمكانية تحقيق الحضارة الدهرية المعاصرة لما بلغته من علو تقني غير مسبوق بل يؤشر على أن هذا العلو ذاته يتحول في غيبة شرعة ومنهاج متجاوزين لما هو طبيعي ولا يد للإنسان في تبديل القواعد الناظمة لعلاقاته البينية ومع كل ما بالكون من موجودات إلى نسق متأرجح يولد ردود فعل متضادة تؤدي في نهاية المطاف إلى انهياره. وبوسع القول بأن بالقصص القرآني قوانين علمية عمرانية مكنونة لا نفاد لها إلى يوم الدين يتعين على الجماعة العلمية الحفر في معينها الثري والذي سيظل بكرًا وطيب الكل عوضًا عن العبث وهدر الطاقات في البحث عن منهجية لسبر دروس الماضي الإنساني عبر مصادر مشبوهة وظلامية، ويستحيل الجزم بمصداقيتها لكونها من كتابة المنتصر، وتعبر عن منطق (حق القوة) لا عن منطق (قوة الحق) الذي لا يجليه إلا القرآن.

ويظل سؤال إقامة الحجة القرآنية في القراءة المنهجية للقصص القرآني هو: هل من عاقل يماري في أن كل ما يدعو إليه هذا القصص من: السعي بالبر والتعاون على التقوى وكلمة السواء الجامعة بين الأمم وإصلاح ذات البين الأمتي واجتناب التعاون على الإثم والعدوان والبغي في الأرض بغير الحق هو المعيار الأولى بالاتباع إن لم يكن دينًا فلكونه شرط: العمران الإنساني المستدام، والمخرج الحقيقي من ما فعله الإنسان المعاصر بنفسه وببيئته بكل مكوناتها؟

فالتاريخ يكتبه المتغلبون ويشرحه المتربحون . ويحفظ بجهود حراس تركته في كل زمان ومكان. وحراس التركة الموروثة من التاريخ المكتوب بيد المتغلبين بقوة الحق هم قلة في كل زمان ومكان. وعلى العكس فإن حراث تركة الزيف التاريخي بحق القوة كثر. ومرد ذلك أن سمة حراس التاريخ الصحيح يؤمنون بمبدأ لا إكراه في الدين،

ويمرون باللغو مرور الكرام، ويعلمهم دينهم أن الرد على العدوان بالمثل هو ذاته يسمى (عدوانًا) والمعاقبة على السوء بالمثل) تسمى (معاقبة) لا ردًا ولا يحل في قاموسهم الكذب ولا التنابذ بالألقاب ولا السخرية من الغير، ويصبرون ويصابرون على الدعوة إلى الله على بصيرة، وعلى الدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة وبالمجادلة بالتي هي أحسن، ويلتزمون كلمة التقوى ويدعون إلى كلمة سواء بين الأمم على استباق الخيرات. وشاغل هؤلاء هو: الفعل العمراني المبادر واجتناب الانجرار إلى سبل ردود الفعل تجاه حراس تركة الزيف المعرفي التاريخي. وباستلهام هدي القرآن إلى أن طاعة أكثر من في الأرض تفضي إلى الضلال عن سبيل الله حتى لو كان المبتلى بها نبيًا من أولى العزم، فإن زبد حراس التركة من المقلدين لما كان عليه آباؤهم جيلاً بعد جيل دون بينة من عند الله تعالى يجعل تلك التركة مكتظة على الدوام بأسباب القابلية للعطب، وللوقوع في فخ إساءة العمل مع الظن بإحسانه.

ومن هنا تؤدي فرادة القرآن الكريم في وصل الحاضر بعبرة الماضي الثابتة وإصلاحه هو والمستقبل بعلم نافع مصدق عليه ومهيمن عليه من القرآن الكريم. فمن القرآن وحده يمكن كتابة كل من: الجملة المعرفية الدهرية بكافة خصائصها الحقيقية، وكتابة الجملة التوحيدية كذلك بكافة سماتها الحقة ويمكن التوصل إلى الفرقان المنهاجي المبين للخط الفاصل بينهما والوقاية من الجملة المعرفية الملتبسة والمداهنة. وذاك هو جوهر العلم النافع المستنير بنور القرآن

ألم يحن الأوان بعد لمراجعة مقولة فك (شمبليون) ومن جاؤوا مع الحملة الفرنسية من العلماء الدهريين لرموز الكتابة الهيروغليفية؟ تلك المقولة التي تخيم على الأثر الكارثي لتلك الحملة المشؤومة على الإنسانية حتى يومنا هذا؟ وسؤالي الذي أطرحه هنا: أين هي الوثائق الخاصة بالحضارة المصرية التي تم ترجمتها استنادًا على مقولة قراءة العلماء الفرنسيين لحجر رشيد الذي افترضوا أنه يتضمن نصا بالهيروغليفية وتحته ترجمته باللغة اليونانية؟ ولم لم يفتح هذا الكشف العلمي المزعوم آفاق الغوص في أعماق تلك الحضارة على شاكلة ما ترتب على ترجمة المسلمين للتراث الإغريقي القديم إلى العربية في أوج عصر الازدهار الإسلامي في القرن الثالث عشر والذي امتد أثره ليشمل العقل الغربي والعقل المسلم

معًا؟ ولعلي أسأل أين ما اكتشف من علم التحنيط لدى المصريين القدامى حتى الآن؟ وإذا صحت سردية حجر رشيد فما الذي منع العلماء في مشارق الأرض ومغاربها من الحفر في هذا العلم حتى الآن؟ وإلى متى نبتلع مقولات من حقها علينا إخضاعها لمراجعات علمية منهجية صارمة؟

وأود هنا ان أقول إن ذلك الكشف الذائع الصيت غير المختبر علميًا حتى الآن ليس هو الدليل على مدى التقدم الذي وصلت إليه تلك الحضارة والذي يمكن استمداده من مصدرين:

- أولهما: ما ورد بالقرآن عن مستوى التقدم الذي عرفته تلك الحضارة.
- وثانيهما: الآثار الحجرية التي استعصت على دس مقولات زائفة فيها على النقيض من الوثائق المكتوبة التي كانت هي ذاتها قاطرة تزييف شموخ تلك الآثار ودلالتها العمرانية.

ومن المؤسف بحق أن تلك الحملة التي مثلت رأس سهم نقل كل زيف الثورة الفرنسية الدهرية إلى عالمنا الإسلامي صورت مرتين بما يستوجب الثناء عليها. مرة على أنها ناقلة مصر من عصر الحواشي على الحواشي إلى عصر الاستنارة العلمية والمطبعة، ومرة على أنها كشفت مفتاح قراءة حضارة من أقدم الحضارات الإنسانية وأكثرها آثارًا في الأرض حتى الآن. وكلا المقولتين سرابيتين وافتراء على الحق وتسمية للأشياء بعكس أسمائها وتزكية لسوء مدخلات ومخرجات تلك الحملة بالباطل

فكر الفلاسفة قديمهم وحديثهم غير المنطلق من أوليات قرآنية يتعدى مقام كونه رؤية لكل فيلسوف منهم للأشياء بهواه وانطلاقًا من مشكلات محلية عاش في ظلها واستمدادًا من سقف معرفي محلي في البحث عن المخارج والحلول. ومن هنا تكاد الأسطورة تكون ملازمة للفلسفة الدهرية. ومن النادر أن ينتهي الطرح الفلسفي لفيلسوف دهري بعيدًا عن النقطة التي أقلع منها فيما يتعلق بتقديم إجابات عن الأسئلة الكلية النهائية الوجودية. وأما طرفه الثاني فهو مظنة عدم حاجة فكر الأولين إلى المراجعة وإلى التخلية والتحلية وانتقاء أحسن ما فيه وفق السقف المعرفي لكل عصر من العصور بمعيارية قرآنية صارمة.

وبالتالي فإن قول الشيخ رحمه الله أن الفلاسفة القدامى تمكنوا من الفصل بين العلم والخرافة قول منتفخ لا يصمد أمام النقد على الأقل فيما يتعلق بالفلسفة المتعلقة بماهية الإنسان ووظيفته في الحياة وفي حديثه اللاحق رد ضمني عليه. والمسافة سحيقة بين قولنا إنهم (حاولوا تحقيق ذلك الفصل)

وبأنهم حققوا هذا الإنجاز الذي هم عاجزون عن تحقيقه حتى الآن. وهم بقول النورسي فيهم شبيهون بما يحاول نقل (الماء) من واد سحيق إلى (قمة جبل شاهق خال من البشر ومن النبات والحيوان).

10- دعوى خطية التقدم العلمي:

تحقيب الدهريين الغربين لمراحل تطور المعرفة العلمية على هذا النحو يؤشر على ما يستبطن منه خطية التقدم العلمي. ويحجب في الوقت نفسه حقيقة أن كافة صور المعرفة المذكورة موجودة في كل تلك المراحل مع فارق واحد هو اختلاف الصنف صاحب السيادة في كل منها. ويخفي ذلك أيضًا واحدة من أهم أعطاب التحقيب الغربي لتطور المعرفة العلمية ألا وهو: أحادية ذلك التحقيب التي تنسب كامل كل مرحلة للمعرفة ذات السمة التي تسود فيها، وتفرض على بقية صنوف المعارف الاختيار بين التهميش أو التكيف معها والتخلي عن خصوصياتها أو الرد برد فعل مضاد بالدخول في علاقة صراع معها بهدف إزاحتها، واحتلال مكانها، والعمل حينها بذات منطقها

وهنا تظهر أسطورة خطية العلاقة بين (العلم الإنساني الحسي بالطبيعة) وبين الترقي من المحسوس إلى المجرد وربط الدين والثقافة والأدب بعملية تطور خطي. فواقع الأمر في المنظور القرآني أن الإنسان تعلم أسماء كل شيء قبل أن يسكنه الله الجنة، وتلقى من ربه الهدي المبين له أولياءه من أعدائه، وتلقى التكليف الرباني بـ (افعل ولا تفعل) في الجنة واهبط إلى الأرض بعد أن تاب الله عليه بكلمات تلقاها آدم من ربه، وبذا سبق التجريد التعاطي الإنساني مع المحسوسات. ولعل الفارق الرئيس بين الدين الدهري ومعه العلوم الدهرية من جهة ومقابلهما التوحيديين هو ارتكاز الأوليين على فكرة ربط تقديس الإنسان للمحسوسات بجهله بطبيعتها وخوفه منها وتحرره من قداستها، والعمل على قهرها والتحكم فيها باستنارته العقلية، وأن الإنسان بذلك هو من خلق آلهته وليس الإله هو من خلق الإنسان، وأن الدين معطى إنساني تدرج في اتجاه التجريد مع تطور مستوى المعرفة البشرية. ولا خفاء هذا الكامن الخبيث لم يتحرز منها كثير من المؤلفين المسلمين.

11- ابتلاع كامن المعرفة الغربية الدهرية

تحت أغلفة ثلاثة: تلك هي بضاعتنا ردت إلينا، والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أولى الناس بها، وإنسانية العلم. وهنا تكمن خطورة كامن المعرفة الغربية الدهرية المعاصرة. فالقول بأن فلسفة العلم تبدأ مع أرسطو هو اجترار لأسطورة أوربية لا أساس لها تغفل حقيقة وجود حضارات أعمق في فلسفة

العلم مثل الحضارة الصينية والهندية والمصرية والبابلية والأولى في اعتقادي، التفكر في تصنيف للعلوم لا يجتر التصنيف الغربي الدهري السائد، ولا التصنيف التراثي المسكون بدوره بالجملة اليونانية وإن تواتر وصفه بالإسلامي. وربما يكون تصنيف العلوم إلى صنفين: علوم التدبر في الأنفس والآفاق وعلوم ميزان التدبر. وموضوع الصنف الأول من العلوم موضوعه هو: وصف شبكة العلاقات بين الموجودات واستكشاف أفلاك الموجودات، وآفاق إعادة التوليف بين الموجودات على نحو يحفظ الأمانة ويثريها. وأما موضوع الصنف الثاني فهو: استكشاف المعيارية القرآنية لوزن كافة عمليات التدبر المعرفي في الأنفس وفي الآفاق، وصياغة مقياس له مؤشرات واضحة مصدق عليها قرآنيًا لتحديد ضوابط وصف الظواهر العمرانية وأصول تفكيكها وقواعد التوليف بينها وضوابط توجيه ثمار العملية البحثية: (الوصف التحليل، بناء القوانين العلمية، بناء النماذج المعرفة، التفسير التقييم التقويم التنبؤ الاستشرافي المستقبلي، الحفر في عبرة الخبرة التاريخية التخطيط الوقائي التخطيط العلاجي، نشر المعرفة النافعة، التعارف بين الأمم، تعزيز كلمة السواء الأمتية، الإبداع في التسابق في الخيرات) وبالتكامل بين الصنفين واعتبارهما بمثابة زوجين لا ثنائيين يفتح السبيل لتناسلهما بمنطق الأزواج المتكاملة لا الثنائيات المتنابذة، ويتحقق مطلب عدم الخلط بين الميزان والموزون ويمتلك العلم بوصلة يمكن بها التمييز بين: عمران الاستدراج وعمران التمكين، ونصير أمام متصلات وخرائط ومنظومات لكلا الصنفين من العمران.

ويبقى الأهم هو اعتبار كلا صنفي العلوم: علومًا إنسانية بما أن من يستكشفها ويصوغها ويوظفها هو العقل الإنساني المستقريء والمستنبط من مصدريها: الكتاب المنزل والكون المشهود. ويفتح ذلك آفاق واسعة للتأكيد على مبدأ عدم تقديس أية معرفة إنسانية، والتسليم بوجوب مراجعتها باستمرار للانتقال من الحسن إلى الأحسن سواء في طرائق تحصيل المعلومات أو طرائق التوليف بينها واستنطاقها أو طرائق توجيه ثمارها للصلاح والإصلاح واجتناب توجيهها شعوريًا أو لا شعوريًا صوب الفساد والإفساد في الأرض. وربما تمثل هذه الفكرة نقطة انطلاق صوب تصنيف للعلوم مصدق عليه قرآنيًا وجدير بحق بوصفه بالإسلامي.

واعتقادي أن العقل المسلم لن يستطيع مهما بذل من جهد بحثي أن يكشف كامن التصنيفات الدهرية للعلوم، ويميز بين الجملة المعرفية الدهرية والجملة المعرفية التوحيدية ما لم يتنبه إلى حقيقة أن كافة العلوم إنسانية سواء تعلقت بمعرفته بنفسه أو بالكون أو بشبكة علاقاته مع الموجودات فذلك الأمر

الرباني التكويني الذي لا حرية له فيه وفي مجال الأمر والنهي التكليفيين اللذين هما مجال حريته التوحيدية المسؤولة مع اجتناب الوقوع في فخ الخلط بين قداسة الكلمة القرآنية بحكم إطلاقيتها الربانية، وبين الموازين التي يستقرئها ويستنبطها في ضوء نصيبه النسبي من مكنون تلك الكلمة ومن رؤيته للكائنات بنور منها. وتحتاج هذه الفكرة إلى تقعيد علمي ومدارسة أظنها مطلوبة للغاية للتحرر من المضامين الدهرية المقزمة لمفاهيم مثل: التربوي، السياسي، النفسي. ويبقى أخطر عطب في هذا التصنيف تضمين صنفًا بمسمى (العلوم الطبيعية) في ضوء حقيقة أن هذا المفهوم تعرض لعدوان دهري مركب عليه على متصل: تأليهه وصبغه بصبغة الإله العشوائي الخلق القابل لقهر الإنسان له إن هو تحرر من فكرة الإله المتجاوز لما هو طبيعي، البارئ للكون والممسك بمقاليده والراعي له والمحدد لمصيره والكاتب على السماوات والأرض التبديل، والكاتب للإنسان البعث بعد الموت والحساب والخلود الأخروي منعمًا أو معذبًا وفق نوعية الاختيار الذي اختاره في ساحة قبول السعي بشرعة ومنهاج هذا الإله الواحد أو جحودهما، واتخاذ ما يسمى الطبيعة إلهًا له أو تاليه عقله المكتفي بذاته. وواقع الأمر أن كامن مفردة (الطبيعة) أفرخ وباض في العقل المسلم إلى حد تسمية النباتات التي تنبت بغير استنبات الإنسان لها: نباتات طبيعية بما يستبطنه ذلك من فحوى مظنة أن الطبيعة خالقة وغياب المسمى الحقيقي لمثل تلك النباتات (نباتات ربانية).

وأخطر مدخل لاستدامة سوء ذات بين الدين والعلم التنقيب عن أدلة ظنية على أصالة وعمق العلاقة بين الدين والعلم بينما القرآن بأيدينا بينٌ بذاته ومبين ٌ لكل ما عداه ومؤشر صدقيته هو تفرده بانتفاء وجود اختلاف فيه وجوهر وظيفته هو: تبينه للناس الذي اختلفوا فيه. وهي القاعدة المنهجية البالغة البساطة والشمول. فكل ما لا يخالف ما ورد بالقرآن فهو مما يتعين استصحابه في بناء علوم العمران التمكيني التوحيدي، وكل ما يخالف ما ورد به فهو مردود إما لكونه من خطوات العمران التمكيني الاستدراجي أو لكونه بمثابة انحراف وتلبيس للجملة الدهرية بالجملة التوحيدية. ومن أخطر ما في فكرة الشيخ جمال هذه أنها ستجعل استكشاف كامن الجملة اليونانية الرومانية خاصة والجملة الدهرية بوجه عام في التراث الإسلامي في حكم المستحيل وستقود إلى الوقوع في فخ البحث عن شواهد قرآنية منزوعة من سياقها لتوثيق ما قد يكون معلومة صحيحة غارقة في بحر ظلمات دهري وثني على شاكلة من يبحث عن إبرة في كومة تبن بحجم جبال الهيمالايا بينما الحقيقة بين يديه شرعة ومنهاجًا بالغي اليسر والتمام في القرآن الكريم

12- الخلل في تحديد جذر وهن الأمة برده لما يسمى الفتنة الكبرى والتعمية على تحكيم الجملة اليونانية الملتبسة في الجملة الإسلامية:

من الخطورة بمكان اجترار أسطورة ما سمي الفتنة الكبرى وتصوير ما تم تصويره زورًا وبهتانًا على أنه صراع وقع بين الصحابة رضوان الله عليهم جميعًا، وسوقه على أنه من بين الأسباب السياسية لتزوير التاريخ. فلقد برهنت في أطروحتي للدكتوراه بدراسة مستفيضة على زيف تلك الفكرة ونقضتها من أساسها، وطبعت الرسالة عدة مرات ولم يصل إلى علمي حتى ساعة كتابة هذه السطور تجرؤ أي باحث على نقد ما سقته من حجج، رغم دعوتي مرارًا في بحوثي اللاحقة إلى مثل هذا النقد.

والمسألة ليست مسألة انتصار للصحابة رضوان الله عليهم فهم في غنى عن انتصار أحد من العالمين لهم بعد حيازتهم شهادة الله لهم. فالأمر يتعلق بمسألة أخرى هي أن تلك الفرية غطت حتى الآن على الجذر التاريخي لتزييف العلاقة بين الدين والعلم وإصابة كل علوم أمتي الإجابة والدعوة بأعطاب بالغة. وذلك الجذر هو ترجمة التراث الإغريقي القديم المؤسس على أساطير وعلى وثنية معرفية ومنطق صوري وتلبيس فلسفي لماهية الإله والإنسان وطبيعة العلاقة بينهما. ومع تلك الترجمة جرى استبدال الجملة القرآنية المحكمة والميسرة للذكر بالجملة اليونانية الملتبسة والمداهنة وبفتح العقل الأوربي على تلك الجملة اليونانية وامتدادها الروماني غرست بذرة الاستنارة المظلمة الدهرية الغربية الحديثة والمعاصرة وتشوهت منظومتي القيم المسيحية والإسلامية وتجذرت أكذوبة المفاصلة بين الدين والعلم والرؤى الأحادية للمعرفة.

والأولى في دراسة عن إصلاح ذات بين الدين والعلم ألا ننجر إلى كامن أكذوبة الفتنة بين الصحابة على كرسي السلطة. صحيح أن كل أدبيات تلك الواقعة بما في ذلك مسماها المنتفخ ذاته واحدة من أهم نماذج الافتراء في التاريخ الإنساني، لكنها ما كانت لتتجذر وتحظى بالقبول لولا إصابة العقل الإسلامي بالجملة الدهرية اليونانية الرومانية باختياره مرة في القرن الثالث الهجري، ثم مرتين أخريين في ظل الاستعمار القديم والجديد وعلى يد القوارض المجازة ممن يجترون المقولات الاستشراقية قبولاً أو حتى بحثًا عن تبريرات ودفاع في مقابلها.

ولعل التزامن بين الأدبيات التي خاضت فيما شجر بين الصحابة على غير بينة على شاكلة من خاضوا في عرض أم المؤمنين ابنت الصديق -رضي الله عنهما - بالباطل إلا على يد المعتزلة في القرن الثالث بشؤم

الفرقة المعرفية والانشغال بتفسيق اناس من أمة قد خلت بالمخالفة للهدي القرآني. وتمس الحاجة الان فيما لو أردت الجماعة العلمية استكشاف آفاق إصلاح ذات بين الدين والعلم وإصلاح ذات بين العلوم بالقيام بعملية تخلية منهجية للتراث إلى حفر معرفي معمق ومحتسب في جدلية الجملة اليونانية الرومانية / الجملة الفقهية الكلامية الإسلامية وسيرة تلك الجدلية وصيرورتها حتى الآن ومعايرة تلك الله السيرة في ميزان الجملة القرآنية النابعة من وحدة البنية القرآنية بتعبير العلواني والقراءة السياقية للقرآن بوصفه جملة واحدة بل كلمة واحدة بتعبير محمد عبد الله دراز علة مثل هذه التحولات كامنة في الجملة اليونانية الرومانية حيث فكرة العنصر المتعالي بوعد رباني على بقية البشر المنفرد بمعرفة السياسة وتدبير الممالك المستند على حق القوة لا قوة الحق.

فجذر كل الخلل الذي وقع في نظام الحكم في العالم الإسلامي هو توهم أن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم بنى بالهجرة إلى المدينة المنورة دولة. فواقع الأمر أن ما بناه النبي هو (أمة). وبتغييب منطق الأمة الواحدة والدولة الخادمة لها والمنعوتة بالتداول بطبيعتها تم تقليص مفهوم الخلافة في مؤسسات الدولة، ثم تم تقليص مؤسسات الدولة في شخص الخليفة، ثم الزعم بأن الشرع يضع كافة السلطات في يده.

ولئن كان للمسلمين الأولين عذرهم في الصدر الأول للإسلام أن القي على عاتقهم مسؤولية الابتلاء بدخول الناس في دين الله أفواجًا ومعهم عاداتهم وتقاليدهم وأعرافهم في رقعة امتدت في القرن الهجري الأول جغرافيًا إلى آفاق شاسعة لا تزال مناظرة إن لم تكن أوسع من منطقة الأكثرية المسلمة في العالم حتى الآن أن انصب جهادهم الكبير بالقرآن وبالسير به في الأرض على تقديم نماذج للأسوة في المناطق التي فتحها الإسلام بأن كانوا قرآنًا يمشي على الأرض وتجريد القرآن فإن إقدام عمر بن عبد العزيز لاحقًا على تدوين المرويات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في أواخر القرن الهجري الأول فتح بابًا واسعًا للخلط بين أحكام تنظم الشؤون الفردية، وأحكامًا تنظم الشؤون العامة للأمة علاوة على ما فرضه من تأسيس لعلوم الجرح والتعديل التي مثلت إبداعًا فريدًا من جهة ومفتاحًا للنخبوية المعرفية من جهة أخرى وبابًا للوضع والدس وسوء التأويل والانشغال عن التدبر في القرآن. وبالابتلاء بالجملة اليونانية لاحقًا تجذر الجدل الصوري وخاض العقل المسلم في فضاءات معرفية لا قبل له بها وانفتح الباب تدريجيًا وباطراد لتضخم مرضي للفقه الفروعي الفردي ولعلم الكلام وللفلسفة الملتبسة وللحواشي والحواشي على الحواشي.

تلك هي في اعتقادي مربط الفرس في عملية إعادة توجيه بوصلة البحث في جذور وهن أمتنا على مدى القرون الخمسة الأخيرة ومراوحتها في مكانها، وفشل كثير من الجهود المعرفية الصادقة الفردية والجماعية في تحقيق ما يمكن أن اسميه (المس القرآني) للعقل المسلم المعاصر وغرس بذرة استعادة التعافي من القعود والسبات واستئناف الدور العمراني لأمتنا.

13- الخلل في تحديد الغاية من الوجود:

محورية التمييز بين أهمية أي مخلوق، وبين اتخاذه ناظمًا لغاية الإنسان في الوجود: من الخطأ البين الخلط بين أهمية الطيبات في كافة المجالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية، وبين اعتبارها غاية للوجود الإنساني على الأرض. فالتزكية والعمران مطلوبان بالغي الأهمية، إلا أنهما ثمرة للدين، وليسا ناظمين له.

فلقد نص القرآن الكريم على أن الغاية من وجود الإنسان هي: عبادة الله. ومن الخطأ تحويل الشيء الذي هو موزون بالدين إلى ناظم لـه. ففي ذلك إغفال لحقيقة: وجود نص يبين ناظم الدين كله، ألا وهو: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ [الذاريات: 56]. ولابد من التفرقة بين: التركيز على بعد معرفي ما، لكونه أهمل، وبين تحويل ذلك البعد الجزئي إلى تفسير كامل للظاهرة الإنسانية كلها. فالتفسير الخاطئ يقود إلى العمل الخاطئ. ومع أن لكل بعد حكمة فرعية. فإن الدين الإسلامي كله له حكمة جامعة، يلزم أن تكون هي النواة التي تنتظم بها الحكم الفرعية جميعًا. والدين روح وجسد. والروح هي مطلوبه الحقيقي، والجسد هو جزؤه الإضافي، الذي يخرج به من حيز الإمكان إلى حيز الوجود. ويتسع مفهوم العبادة ليشمل: كل السعي الإنساني في الأرض المنظوم بالوحي المنزل من عند الله تعالى

رابعا: مفاتيح الفيئة الأمتية إلى صراط الله تعالى

من هذه المفاتيح:

1- استحضار الوعي بوحدة السنة الإلهية: في الكون واحدة لا تقبل التعدد ولا التحول ولا التبديل وتمثل نظامًا لجدلية كافة الخيارات الإنسانية في فضاء منظومة الأوامر والنواهي الربانية التكليفية مع تلك السنة التي يمكن تلخيص جوهرها في عبارة واحدة: وحدة مآلات العدل والإحسان ووحدة مآلات الظلم والعدوان.

- فثمرة الأولى هي: التزكية بالحق والعمران التوحيدي والفلاح في الدارين والحياة الطيبة فيهما.
- وثمرة الثاني هي: إمكانية الاستدراج بالازدهار الحضاري المفضي إلى الطغيان والترف والانتهاء إلى زوال وإلى التدسية وتزكية النفس بالباطل والخسران المبين في الدنيا والآخرة.

تقوم تلك السنة على قانون عمراني لا زماني ولا مكاني جوهره هو: ثنائية قابليات الطيبات. فهي تسخر مع من يلتزمون صراط الله المستقيم ويتجنبون صراط المغضوب عليهم والضالين وتسخر على من يحيدون عن تلك الصراط ويصرون على الانحراف عنها إلى نهاية الأجل الذي كتبه الله لهم سواء كانوا أفرادًا أو أنساقًا عمرانية إنسانية.

والسنن التي تقبل التعدد وصيغة الجمع بالتالي هي سنن الأولين والتي هي زوجان متقابلان: سنن الصالحين وسنن الطالحين. والوعي بكليهما بالغ الأهمية في تأسيس العلوم بتحديده ما يتعين تخليته وما يتعين تحلية العلم وتجليته به . والمفتاح الصحيح للوعي بها هو : القصص القرآني والتقريرات القرآنية

2- تجفيف منابع العدوان على القرآن الكريم:

ومن أهم تلك المنابع:

أ- **التزيد في القول بزعم محاولة إظهار ما قصد القرآن إبهامه.** فما يسمى علم أسباب النزول، هو زيادات لا دليل عليها ولا ضرورة لها، بالنسبة للقرآن الكريم.

ب- **نقض فرية "النسخ والناسخ والمنسوخ" في القرآن.** فالقول أن القول بالنسخ سواء في كتب النسخ أو في كتب التفسير كلها-كما أوضحنا في كتابنا- لم تستند إلى بيان قرآني يقرر إلغاء نص أو تعطيله أو تبديله أو سلب تكليفه. و أن عبارة (آية قرآنية ناسخة) أو (آية قرآنية منسوخة) لم تخرج من فم الرسول الكريم ρ تصريحاً أو تلميحاً. وجيل الصحابة بأكمله خصوصاً من يعتد بعلمهم لم يتداولوا في حياتهم تلك العبارة الشاذة "آية ناسخة" أو "آية منسوخة"، وما ألصقه بعضهم بعمر بن الخطاب وغيره من الصحابة τ لا يخرج عن حدود الافتراء، ولا يوجد له سند، اللهم إلا "خوض الشيعة" بالباطل.

ج- **التحول من الإفراط في التركيز على القراءات إلى الفقه السياقي للقرآن:** وتوجيه ما ينفق من وقت المعلم والمتعلم على إتقان كل تلك القراءات لا يخدم أي مقصد قرآني ولا عمراني. وتوجيه مثل هذا

الجهد لاستكشاف وتدريس منظومات الرؤى الكلية والأحادية والمركبة وخرائط الأطر المرجعية المقابلة أنفع بلا ريب لتشكيل فقهاء إسلاميين. والقول بأنها رخصة بالنسبة لمن كانت تلك هي لهجاتهم التي ينطقون بها فطريًا يستبطن بحد ذاته وجوب عدم الانشغال بتأسيس علوم عليها. فالسماح لهم بنطق القرآن بها يعني عدم شغلهم بالانتقال من لهجتهم إلى لهجة قريش لكون الأهم هو فهمهم للقرآن. أم حين يراد تعليمها لغير الناطقين بها وشغل حفظة القرآن بقراءته بها فإنها تغدو جهدًا قليل أكله. فمن سيجيدون قراءة القرآن به سيكونون قلة بالضرورة. فلا هي ستكون قاطرة لفهم ولا معرفة يمكن تعميمها.

د- **تخليص العقل المسلم من عواقب الخلط بين مفهومي (الدين) بكسر الدال و(الدين)** بفتح الدال، والذي يقبل صيغة التثنية والجمع. فالثاني هو مجرد فرع من الأول يتعلق بالتكليفات الربانية وبالتكليفات التعاقدية بين البشر المتعلقة بدفع مؤجل. وكل معاني الخضوع والتذلل وما أشبه لصيقة بمفهوم (الديون). وبناء كلا المفهومين وتحديد الخط الفرقاني بينهما وشبكة العلاقات بينهما بالتالي من القرآن أولى من تلمس بناء مفهوم الدين عبر علم الاشتقاق.

فما نبه إليه محمد عبد الله دراز هو أن معاجم اللغة لا شأن لها ببناء المفاهيم والمصطلحات إلا على سبيل: بيان كل مفردة مستغلقة (فرضًا) بألفاظ أيسر منها، واستدعاء نظائرها ومفرداتها وأضدادها. ومهمة من يبني المفاهيم والمصطلحات تتمثل في رسم خرائط ومنظومات ومتصلات من تلك المفردات. وتظل تلك الخرائط والمتصلات والمنظومات استئناسية. وأما بناء المفاهيم والمصطلحات على مستوى الإنشاء والتأسيس فمصدره الوحيد هو القرآن الكريم. وهذه المفاتيح الدرازية المنهجية بالغة الأهمية وعظيم النفع كما جربتها في بعض دراساتي مؤخرًا،

ولعل الأوفق من تصوير الدين على أنه علاقة بين الله تعالى والإنسان ووصف الطرف الأول بالأعلى المقدس والثاني بالأدنى والوقوع من حيث لا ندري في المقارنة بين ما لا يصح المقارنة بينهما أصلاً، واستدعاء الكامن المريض الناتج من الخلط بين العبدية والعبودية من تأثير الخلط بين (الدِين) و(الدَين) واستدامة النظر إلى كمال الله تعالى على أنه علامة على حقارة الإنسان للخروج من تلك الظنون غير الصحية والارتقاء إلى مرتقى التكريم الرباني للإنسان بالهدى المنزل عليه بكل أنساقه في كل زمان ومكان طيلة اليوم الدنيوي ليهتدي بنوره في تحقيق الحياة الطيبة والفلاح في الدينا والاخرة باختيار حر مسؤول

في دائرة منظومة الأوامر والنواهي الربانية التكليفية. لا يخفى أن مقولة أن الدين (علاقة بين الله والإنسان) ليست تعريفًا للدين.

فالعلاقة بين الإنسان وربه كما بينها الفاروقي رحمه الله في كتاب التوحيد هي علاقة: فصل ووصل معًا: فصل بمعنى استحالة أن يتحول المخلوق خالقًا ولا الخالق مخلوقًا مما يعني كون المسافة الفارقة بينهما مستحيلة التجسير. وأما كونها علاقة وصل بمعنى: الرعاية الربانية الدائمة للإنسان في مجال الأمر الإلهي التكويني كله، وبالهداية في مجال الأمر والنهي التكليفيين، والوصل بين الإنسان وربه من حيث: مبتداه مخلوقًا بيد الله وعبر كل أطوار حياته شاهدًا ومشهودًا وحاملاً لأمانة طاعة ربه باختيار حر مسؤول ومسيرًا في موته ونشوره وحسابه ونوعية حياته الآخرة. والدين هو الشرعة والمنهاج المبينين لمتصلات السعي الإنساني الرشيد والضال في الأرض.

ولا يخفى أن استغاثة الشيخ جمال بعلم الصرف والاشتقاق لم تسعفه عند التدبر في الأوعية الثلاثة لجدوله سالف الذكر من فك اللبس المتسلل عبر جمع معاجم اللغة بين مفهومي (الدِين والدَين). فما التعريف الذي قدمه لمفهوم الدين عبر (دانه) بمستوف للفضاء القرآني لعلاقة الله تعالى بالإنسان، ولا هو معبر عن خريطة تنوع تلك العلاقة بتنوع موقف الإنسان من الرشد ومن الغي كما بينهما الهدى المنزل من عند الله. وبالمثل فإن تعريفه للدين عبر (دانه / يدين له) لم تغط متصل: زوجي طاعة الإنسان التوحيدي / الإنسان الدهري لربهما، ناهيك عن أنماط كل منهما. ويصدق الأمر نفسه على محصلة (دان له / يدين له).

هـ- **الانتهاء عن الانشغال بمكان نزول القرآن والتميز بينه وفق هذا المحدد :** هذا هو جذر العطب. فما يسعى المؤلف إليه هنا من انتصار للأولين الذين انشغلوا أساسًا بمسالة (أين نزل القرآن) حتى لو كان مرادهم بها هو (متى نزل: قبل الهجرة أم بعدها) فتحوا ثغرة بالغة الخطورة لا يزال العقل المسلم يعاني منها بشدة حتى اليوم. ويمكن رصد خمسة أعطاب نبعت من هذه الفكرة،

- أولها: إرساء مصطلح سائل وغير منضبط. فعنوانه هو تحديد المكان ولكن مضمونه محدد بالزمان وليس بالمكان.
- وثانيها: الانزلاق إلى هاوية التأسيس للظن الزائف باختلاف نوعية القرآن المنزل باختلاف المكان، أو بالأحرى باختلاف الزمان، وهو الجذر الخبيث الذي لا يزال تتولد منه فرية اختلاف الفتوى

باختلاف الزمان والمكان ومعها فرية ما يسمى بزمانية ومكانية النص القرآني وحصره في معطيات العهد النبوي.

- وثالثها وأم الأثافي: توليد أكذوبة أن القرآن الذي تنزل بمكة كان شاغله هو (بناء العقيدة) بينما كان القرآن الذي تنزل بالمدينة (أو بالأحرى وفق ضمهم كل ما تنزل بعد الهجرة ما سموه القرآن المدني)، فكان شاغله هو (بناء الدولة الإسلامية). ومن هذا العطب ولدت ثنائية: العقيدة / الدولة التي هي جذر مقولة: الفصل بين: السياسة والدين.

ومن رحم هذه الثنائية المريضة الممرضة، تولدت أوهام موقوتية مهمة (بناء العقيدة واتسامها بطابع فردي) أو على أعلى تقدير بطابع: سعي نسق عقيدي محاصر بدار الأرقم ابن أبي الأرقم في مقابل حالة التمكين وقيام الدولة (بالأحرى قيام الأمة فالنبي صلى الله عليه وسلم أسس أمة وليس دولة) التي استطاعت عبر الدفاع عن نفسها تحقيق الفتح الأكبر لمكة ثم الفتوح الإسلامية الجليلة في بقية القرن الهجري الأول.

وعتم ذلك على حقيقة أن القرآن هو كلمة الله الواحدة المنزلة هدى للناس عامة وهدى للأمة المخرجة للناس بصفة خير أمة أخرجت لهم خاصة وأن تلك الأمة قامت بمجرد أن تلقى النبي الخاتم أول ما تنزل من الوحي في غار حراء فكان ذلك النبي الأمي (أمة) على ملة إبراهيم عليه السلام الذي نص القرآن على أنه كان (أمة). وتم في العهد المكي: تأسيس تلك الأمة المفتوحة للبشرية جميعًا باختيار حر مسؤول ببلاغ مبين يتبين معه الرشد من الغي إلى قيام الساعة. ونظمت تلك الأمة وهي في مكة هجرة إلى الحبشة قبل أن تنظم هجرة إلى المدينة المنورة.

وهكذا كان ما يسمى: تصنيف القرآن حسب مكان النزول من جهة وبمعيار ما قبل الهجرة وما بعدها باب خلل مستطير فتح طريق التغييب التدريجي المتسلل والمشبع بزخرف القول لمنطق الأمة ولترسيخ منطق الدولة ولتصوير تاريخ أمتنا على أنه تاريخ (فتوحات دولة) لا على أنه تاريخ (فتوحات أمة مخرجة للناس) بأمر ربها

- فكل من: مصطلحي: أسباب النزول (بالنسبة للقرآن) وأسباب الورود (بالنسبة للحديث النبوي) مفتاح لتضييق واسع وسور يعوق آفاق المضمون الدلالي لآيات القرآن الكريم، وللحديث النبوي النابع من هديه والمجلي له. والأخطر من ذلك أنه يؤبد أبا الأعطاب جميعًا في تلك الدراسات وهو معاملة كل آية قرآنية

على أنها بمثابة وحدة قائمة بذاتها معزولة عن بقية آي القرآن بما أن لكل منها سبب نزول خاص بها ناهيك عن تخليق ثنائية مريضة أخرى هي: آيات القرآن المسببة النزول / آيات القرآن غير المسببة النزول. وفي هذا ما فيه من حجب لوحدة الجملة القرآنية وتغييب لطابعها المطلق اللازماني واللامكاني واللاشخصي.

ومن أعجب العجب أن علماء هذا النوع من العلم لم يمسكوا بمفتاحه القرآني بزوجيه رغم ورودهما معًا في فاتحة الكتاب وفي صدر سورة البقرة. فسبب نزول القرآن كما هو مصرح به فيهما هو: طالبين هداية ربهم استجاب لهم ربهم بإنزال القرآن عليهم: هداية للمتقين في تحصيل وضعية الأمة المخرجة للناس بصفة خير أمة الملزمة من ربها بكلمة التقوى الآخذة بالأسباب الموهوبة والمكتسبة لبلوغ الفلاح وإقامة الحجة التي آتاهم الله إياها على العالمين. والإمساك بهذا المفتاح يؤسس (لعلم أسباب الزول).

زد على ذلك أن مفتاح علم (ورود الحديث النبوي) كما نص عليه القرآن هو: البيان القرآني للتكليف الذي حمله الله تعالى لنبيه الخاتم استجابة لدعوة أبيه إبراهيم الخليل: البشارة والنذارة والشهادة والدعوة إلى الله على بصيرة هو ومن معه والقيام بدور السراج المنير في تبيين الرشد من الغي وتعليم أمته الكتاب والحكمة وتزكيتهم بالحق ووضع الإصر والأغلال عنهم وهدايتهم قولاً وعملاً إلى صراط الله العزيز الحكيم.

ولنا أن نتصور آفاق بناء علمي (أسباب النزول) و(أسباب الورود) بهذه المفاتيح القرآنية ونعيد بها بناء علوم القرآن وعلوم السنة ونمحص بها ما بأيدينا مما نشر وما لا يزال مخطوطات من تلك. ويبقى السؤال المهم اللازم طرحه: ما الذي يضمن عدم الكذب في الرواية عنه صلى الله عليه وسلم ونسبة ما لم يقله إليه أو روايته على نحو يفهم منه غير ما قصده على فرض صدق الراوي أو خطأ الراوي نفسه في الفهم؟ فالقرآن تولى الله حفظه، ولم يترك تلك المهمة لحد سواه. فماذا قد يكون مآل ال مرويات المتروك الصدق في روايتها وحفظها للناس؟

ومن هنا يأتي الخيط الفرقاني بالنسبة للحديث النبوي غير متعلق البتة في القول بمراجعة أية كلمة نطق بها النبي. فالقرآن عاتبه في مسالة التبني حتى على ما كان يدور في خلده مما لم ينطق به كما عاتبه في عبوس لأعمى لا يرى هذا العبوس. وبذا فإنه لم ينطق أبدًا إلا بالحق. لكن: أكل ما يرويه الناس عنه مقطوع بأنه قد نطق به وهو من حذر من مغبة الكذب عليه بما يفيد بالقطع الإقرار بإمكانية حدوث

ذلك. وهنا تأتي فرية توجيه تهمة جحد السنة إلى من يقولون بوجوب القراءة السياقية للسنة القولية على أنها بمثابة الجملة الواحدة والبت في أي اختلاف بخصوص المرويات بالرجوع بها إلى القرآن ليبين ما اختلف فيه بشأنها. فما خف في ميزانه هو مقطوع بزيفه وما ثقل في ميزان هو من الحق والهدي بلا أدنى ريب. وهنا يأتي الافتراء المركب من التسوية بين الحديث النبوي الثابت صحته وبين المرويات وتشويه النسبة إلى القرآن بإطلاق مسمى (القرآنيين) بذلك المعنى المشوه. فوصف (القرآني وسام شرف) إلا أن صرفه في ذهن العامة إلى إنكار السنة القولية تشويه له وخلط بين الرواية والحديث النبوي.

و- **مراجعة مفهوم العلوم الشرعية** من الأوفق الاستعاضة عن مصطلح (علوم الوحي) بمصطلح (علوم الإنذار الأمتي). ذلك كافة العلوم التي يتوصل إليها العقل البشري هي فهم في كتاب الله تعالى، وفهم في الكون المنظور في الأنفس والآفاق. ومن موجبات التمييز بين مصدر العلم وبين المستقى منه بالاستنباط وبالاستقراء بالقابليات الإنسانية من السمع والبصر والفؤاد أن نتجنب في إعادة بناء أسماء علوم الأمة باستلهامها من القرآن بين (القرآن والسنة العملية والقولية المصدق عليها منه، واللذان هما بمثابة الميزان والبيان العملي المحدد لأزكى استخدام رشيد لذلك الميزان) وبين العلوم المستخلصة منهما ومن الكون المنظور والتي هي في حكم (الموزون). وبالتالي ليست هي (علوم الوحي)، بل هي (علوم مستقاة منه).

والمسألة هنا أبعد ما تكون عن استبدال اسم بآخر. فمسمى (علوم الوحي) يوحي بالضرورة بقداسة لها قد تحول دون مراجعتها الأوابة ودون رد ما قد ينشب من خلافات في فضائها سواء في تحصيلها أو في توظيفها العمراني إلى القرآن وإلى السنة الصحيحة الثابتة المصدق عليها منه. وبالقرآن الكريم آية مفتاحية توجه إلى المفهوم الذي نقترحه وتبين كيفية تشكيل جماعته العلمية وكيفية تحصيله ودور من حصلوه في أمتهم. كما أن المصطلح المقترح يستأصل ثنائية الديني / الدنيوي من جذورها وينقلنا إلى دائرة علوم: الأزواج المتكاملة.

وفي ظله تكون العلوم هي علوم (أمة منية) ممثلة لكل فصائل الأمة المسلمة المخرجة للناس على نحو يجمع بين مراعاة: خصوصيات كل نسق من أنساقها من جهة ووحدتها من جهة أخرى. يقول الله تعالى في سورة التوبة: "وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ" [التوبة: 122]. وهذه الآية الكريمة تحض على تشكيل جماعة علمية لأنساق أمتية كبرى مسماها القرآني (فرقة) وحداتها هي أيضًا لبنات جمعية (طائفة

من كل فرقة) وزوجا تنشئة تلك الأمة المنية المكونة من طوائف ممثلة لكل فرق الأمة الواحدة هما: النفرة النسقية الجمعية / التفقه في الدين. ووظيفتها التي تجعل التفقه في الدين وسيلة لغاية وليس غاية بحد ذاته هي: إنذار كل طائفة من تلك الجماعة العلمية المتفقهة في الدين عبر عملية تعليمية جادة وبالسير في الأرض بمقتضى المضامين الدلالية لمادة (نفر) التي تأتي بصيغة الفعل المضارع المستوعب للحاضر وللمستقبل معًا. ودور هذه الجماعة يتحدد ب(الإنذار) في أحوال (رجوع) أمتهم إليهم في أمر الأمن أو الخوف.

ومقتضى مفهوم (الإنذار) هنا هو: تحذيرهم في البحث عن ما يصلح ذات بينهم ويوفق بين رؤاهم فيما اختلفوا فيه هو تحذيرهم من الآية الكريمة التي تمثل ذروة (الإنذار الأمتي). فبالقرآن آية كريمة يبلغ الإنذار فيها حد القطع بانتفاء أدنى صلة بين الواقعين في الكبيرة التي تتحدث عنها وبين النبي الخاتم صلى لله عليه وسلم. وتلك الكبيرة هي: تفريق الدين والانقسام إلى شيع متنابذة. فلنقرأ قوله الله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۚ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: 159]. والآية المتممة لهذه الآية الكريمة في النذارة هي الآية التي تخير المؤمنين بين اثنين: الاجتناب التام لكل ما تبقى من الربا تسويغًا له بالهوى وباتباع خطوات الشيطان وبالتلاعب بالأسماء والمسميات وبين: الإيذان بحرب من الله ورسوله. إلا أن هذه الآية على ما فيها من نذير جد رهيب تبقى محوطة بالدعوة إلى التوبة مما يجعل الآية الكريمة الأولى ذات قوامة في فهم أختها هذه وأشد منها نكيرًا. يقول الله تعالى في سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: 278-279].

وتسمية العلوم بوظيفتها العمرانية أولى من تسميتها بصفتها الوسائلية. تلك هي مسوغات اقتراح تسمية تلك العلوم (علوم النذارة الأمتية). وأخيرًا أقول إن تسميتها (علوم الدعوة) غير مستساغ.

فالأمة المنية مدعوة للتأهل لوضعية (الأمة الملزمة بكلمة التقوى والاجتهاد في الأخذ بالأسباب الموهوبة والمكتسبة التي تجعلها بشهادة ربها لا بشهادة الناس لها: أهل للتقوى ودعوتها لأمة الدعوة بالبينة وبرشد مبين من الغي إلى كلمة سواء وبإقامة الحجة لله تعالى على الناس بعلم مصدق عليه من القرآن وبقول سديد متجسد في عمل صالح). ولا يخفى أن الفضاء المعرفي لمفهوم (علوم النذارة الأمتية) أوسع بكثير من فضاء مفهوم الدعوة فضلاً عن كونه ينقلنا من مظنة أن حق أمة الدعوة علينا

هو أن ننشئ لها أقوالاً مدبجة وحقها في أن نريها رحمة الإسلام في أقوالنا وسلوكنا وفي نسكنا ومحيانا ومماتنا بجعله خالصًا سرًا وعلانية لله تعالى.

وأخيرًا أقول إن التركيز على النذارة بدل البشارة يقي الأمة من المداهنة ومن التزكية بغير حق ويضعها على طريق سد الثغرات والتجويد المتواصل في إنشاء علومها وفي توظيف ثمرة القدرة التي تتولد من تلك العلوم. ويبقى القول بأن المسمى الجامع لكافة العلوم الإنسانية والمحدد لها كوسائل ولغاياتها مع استلهام مفردة قرآنية هو (علوم الفلاح الإنساني الإسلامي) ولهذا الإسم المقترح زوجان من العلوم: علوم التدبير الإسلامي وعلوم النذارة الإسلامية.

خاتمة : التوبة الأمتية المؤسسة على الحرية التوحيدية شرط لإصلاح ذات بين الإنسان

لعل أشد المقولات زيفًا دعوى إمكانية التضاد، أو التناقض بين (الدين الحق) و(العلم الحق) النافع بل إنه يمكن القول أيضًا باستحالة التضاد بين (العلم الدهري) و(الدين الدهري) لاستوائهما معًا في الرؤية الكلية والإطار المرجعي وفي تحديد الغاية الوجودية للإنسان وللمعرفة الإنسانية. وكما تبين سورة الكافرون فإن للموحدين دينهم وللكافرين دينهم. والتناقض بين الدين والعلم غير متصور اللهم فيما يتعلق بتناقض العلم الحق مع الدين الحق فيما يتعلق بماهية الإنسان ورسالته في الأرض. والأسرة هي سيناء العصر ومن رحمها حين تسير في نور القرآن تنشئة أنساق أمتية متراحمة.

والعبث بمفهومي الدين والعلم أسفر عن (مسخ مفهوم الإنسان). وبذا أصبح تلبيس البشر لمفهومي الدين والعلم قاطرة لظهور الفساد في البر والبحر بما كسبت أيديهم، بوتيرة مطردة نحو هوة ما لها من قرار تهدد فرصة الحياة في الأرض من أساسها.

ومن هنا باتت استعادة الإنسان المعاصر إنسانيته وإصلاح ذات بين الأفراد، وبين الأزواج الإنسانية بكل أنساقها الربانية الجعل والإنسانية الجعل، مرهونة بتوبة معرفية وجهتها هي إصلاح ذات بين العلوم جميعها بالشرعة والمنهاج الداعي إلى التكامل بدفع الله الناس بعضهم ببعض، والرجوع إلى البحث عن أساس للعلاقة بين الإنسان وخالقه وبينه وبين بني جنسه، وبينه وبين كل ما بالكون قائم على مبدأ (قوة الحق) بركنيها: كلمة التقوى من جانب الأمة المخرجة للناس بصفة خير أمة، وكلمة السواء القائمة

على تعدد وجهات الأمم مع استباق كل منها الخيرات في الظل الظليل لمبدأ: عدم اتخاذ بعض البشر البعض الآخر أربابا من دون الله وتقديس مبدأ (لا إكراه في الدين) مع اجتهاد كافة الأنساق العمرانية في إقامة الدليل على أمرين متلازمين: قدرتها على المساهمة في تحقيق الحياة الطيبة لكافة البشر، وعلى المساهمة في معالجة ما قد ينشب من مسببات سوء ذات بين: الأنساق المتسابقة في الخيرات بركنيها سالفي الذكر. وبمثل تلك العلاقة بين الأمم تتوفر أمام البشرية بدائل للسعي العمراني، ويتبين الرشد من الغي، ويتاح المجال لكل نفس إنسانية فردية أو جماعية للبرهنة قدر استطاعتها على شدة حب الإنسان للخير. وتصير إقامة الحجة التي تمثل القطب الجاذب للاختيار بين البدائل العمرانية المتاحة هي مبتغى الجميع على قدم المساواة.

وهذا هو جوهر ما يدعو إليه القرآن الكريم أمة الإجابة التي دخلت في دين الله، وأمة الدعوة المدعو إلى الدخول فيه. ولا سبيل لإصلاح ذات بين العلم والدين، إلا بالجهاد الكبير بالقرآن. ولابد من التمييز بوضوح بين مظنة صرف قولنا هذا إلى أنه لا صلاح بين الدين والعلم، ولا إصلاح لهما إلا بدخول البشرية كافة في دين الله. فذاك ما يؤكد القرآن على أنه لم يكن ولن يكون إلى يوم الدين. فبموجب مبدأ لا إكراه في الدين ستظل البشرية موزعة بين أمة إجابة وأمة دعوة. وما يدعو إليه القرآن هو: الرشد في العلاقة بين الأمتين.

ومفتاح هذا الرشد هو: بناء مفهومي الدين والعلم بمنظومات ومتصلات وأنماط قيم كل منهما والرؤى الكلية والأطر المرجعية المتقابلة لشبكة العلاقات بينهما من القرآن لكونه هو: كتاب الحرية الإنسانية المؤسسة على: الجامع لا الفارق بين البشر، مع اعتبار كل نفس بشرية مكافئة تمامًا إحياءً وقتلاً لكل البشرية في كل زمان ومكان، وطلب البرهان والحجة دائمًا من كل صاحب مقال، وتحريم المكر السيء والإكراه بكل صوره، وعدم تحميل الإنسان ما هو فوق استطاعته.

وجوهر هذه الرؤية القرآنية هو النظر إلى الإنسان على أنه مخلوق كرمه الله، وحباه بنعم لا تعد ولا تحصى، وكلفه بحمل أمانة كونية، وبنا ء العلوم (تخلية وتحلية وتجلية) انطلاقًا من هذا الوصف للإنسان. وبذا يكون صلاح الإنسان وإصلاحه، وصلاح العلوم وإصلاحها وجهان لعملة واحدة. ويغدو مفهوم (الدين) مرادفًا لمعيار الرشد الإنساني.

والإنسان بهذا التصور (نفس كلية) أخلاقية تتجادل دائمًا مع نفسها في الاختيار بين: الاكتفاء بنفسها في رسم منهاجية سعيها في الأرض، وبين الاستهداء بالوحي المنزل من رب العالمين، وتتحمل مسؤولية البديل الذي تختاره. وهي في الحالين معًا تحيا في كون متاح لها فيه على قدم المساواة كل الطيبات المسخرات. ولا يعصف بتلك المساواة إلا ظلم إنسان لإنسان بالقهر. وبوحدة الظلم والعدل والإحسان، يصير قهر إنسان لأخيه واستعماله الطيبات في صناعة الاستعباد ظلم لنفسه في نهاية المطاف، وصناعة لحياة الضنك والخوف ودوائر الشك الخبيثة. ويغدو التسابق في إقامة الحجة، لا في امتلاك القدرة على التضليل أو الإرغام هو مفتاح المعراج الإنساني باتجاه قابلية للكمال الإنساني لا سقف لها، يغدو معها الإنسان مسبحًا بحمد ربه في كون كل ما فيه يسبح بحمد الله طوعًا وكرهًا، ويتحقق بذلك سداد ودوام ما يشيده من حضارة، ويرشد سيره على طريق الإحسان، لا على طريق الاستزادة من القدرة على البغي في الأرض بغير الحق.

وتحقيق التسابق الإنساني في الخيرات على أساس من كلمتي التقوى والسواء الأمتي، يكاد يكون من قبيل طلب المستحيل فيما لو أريد تحقيقه بنماذج معرفية أحادية أو مركبة. فتلك النماذج تعجز عن رعاية (كلية النفس البشرية). فما هو أحادي لا ينتج إلا طواغيت. وما هو مركب لا ينتج إلا حالات عمران بين فرقاء بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى. وفي ظل الناظم الإنساني الأفقي للعمران تتأرجح موازين القوة بين وحدات المركب، ويغدو العمران متأرجحًا بين: فعل القوة وردود الفعل عليها.

ووحده السعي المؤسس على ناظم رباني رأسي متعال هو الذي يحفظ الكينونة الكلية لكل نفس إنسانية، ويبني الوعي بأن (كافة الأنساق العمرانية المركبة) هي أطر لصراع كامن لقيامها على أسطورة إمكانية هندسة السلوك الإنساني من الخارج. ووحدها الأنساق الإنسانية العمرانية الكلية هي التي تحرر الإنسان من ذلك الوهم، وتؤكد على أن الله تعالى لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

وبالتالي فإن التغيير الذي يعتد به ويؤسس للسير الرشيد على طريق العدل والإحسان والبر الإنساني الجامع هو: العمران المؤسس على ميثاق أخذه الإنسان على نفسه مع بارئه سبحانه وتعالى عند بدء الخليقة، ثم تجدد هذا الميثاق عبر النبوات المتتابعة. فما من أمة إلا خلا فيها نذير، إلى أن توجت بخاتم النبيين. وهذا الميثاق محفوظ بالقرآن إلى يوم الدين، وهو قابل للتجدد وجوديًا مع كل فرد مؤمن. ومحط تركيز هذا الميثاق هو: حرية الإنسان بوصفه مخلوقًا أخلاقيًا واعيًا صاحب إرادة وحاملا للأمانة.

وبتلك العلاقة الميثاقية يمكن للإنسان العصري تحقيق الانعتاق من المأزق الذي وضع نفسه فيه، ومن إنتاج علوم يظن من لهم الصدارة في إنتاجها أنها علوم عمران، مع كونها في حقيقة أمرها كما يتبين من مردودها في أرض الواقع الإنساني علوم تضر ولا تنفع، وتفرق بين البشر، وتعمق سوء ذات بينهم.

وباستكشاف فضاء تلك العلاقة الميثاقية بين الإنسان وربه بدءًا بالموقف التأسيسي الأول، ومرورًا بمنظومة المبادئ والقيم التي يجليها القرآن للهدى المنزل على البشر، وبلوغًا لعملية التوثيق بعلم محيط لكل قول أو فعل برقيب وعتيق على كل نفس بشرية، والإيمان باليوم الآخر، الذي تؤتى فيه كل نفس كتابين: كتاب عملها الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وترى كل ما فعلت من مثقال ذرة من خير ومن شر، وكتاب تعاونها مع غيرها، إن على البر والتقوى، أو على الإثم والعدوان. وفي حين يؤتى الفرد الصالح كتابه بيمنه، ويقف حد المهانة بالفرد الضال أن يؤتى كتابه بشماله ومن وراء ظهره، فإن كتاب التعاون على الإثم والعدوان تدعى إليه كل أمة ظلمت نفسها وهي (جاثية).

ولعله قد تبين أن إصلاح ذات بين العلوم والدين، وإصلاح ذات بين الإنسانية، بالتوجه بسؤال ذلك إلى القرآن، لا يمثل نوعًا مما يسمى الإبداع العلمي، بل هو في حقيقة الأمر، عملية استكشاف لمعرفة قامت عليها السماوات والأرض، مبثوثة في القرآن، وتتوفر أدلة قاطعة على أنها كان هي الأساس الذي قام عليه عمران تمكين من قبل، في لحظة جاهلية مظلمة، وهو بالتالي أساس ركين للخروج من ظلمات الجاهلية الإنسانية المعاصرة مرة أخرى إلى نور أيام الله.

وباستكشاف اطر إصلاح ذات بين الدين والعلم من القرآن الكريم يتمهد الطريق بالنسبة للإنسان المعاصر لمعرفة نفسه، عبر تحسسه طريق الخلاص ثم الفلاح بطرح سؤال رائده فيه هو الوعي الحصيف الرامي إلى استكشاف مصادر للرؤية الإسلامية، من مصدرها الأول، وبدرجة ما من العمق. ذلك أن اعتماد الإنسان على نفسه فحسب في مثل هذا المسعى، يتعثر، ما لم يؤازره بهدي رباني، يكسبه مزيدًا من البصائر بخصوص أبعاد الرؤية الإسلامية لعلاقته بالكون، وبقصة هبوطه الأصلي إلى الأرض، وصلته الفريدة بخالقه، وما شاكل ذلك يصير الهدي، وسيلة للمعرفة وللاستنارة العقلية، فيما يتعلق برسالة الإنسان على الأرض، وحثه على التصرف وفقًا لها. وشيئًا فشيئًا تنجلي أمامنا خصائص الإنسان المخاطب بالوحي المنزل، بوصفه المتلقي والمكلف بالخطاب الإلهي، راسمة له صورة كائن عاقل مدرك صاحب إرادة، قادر على التفكير والاسترجاع والتذكر، وقابل للاستقامة من جهة، ولأن يكون على شاكلة غلاظ الرقاب، قساة القلوب

وبالوصال الحميد مع القرآن دون صوارف ينفتح الطريق لمعرفة الإنسان حقيقة نفسه، وبمعرفة المزيد عن الإنسان تتعزز معرفتنا بالله تعالى، ونتحرر من الالتباس الكامن في الرؤية الإغريقية للعلاقة بين معرفة الإنسان نفسه، ومعرفته بخالقه. فالعقل في السياق الإسلامي يشير فيما وراءه إلى الوحي. والوحي يقوم بدوره الحيوي في تنوير العقل وتهذيب النفس. والإنسان خليفة مؤتمن، مكلف برسالة، قوامها الحب والتقوى (العبودية لله تعالى).

ورؤية الإنسان لنفسه عبر رؤية كلية للصورة التي يرسمها القرآن له منذ تسوية الله تعالى له بيديه ونفخ الروح فيه وتعليمه الأسماء كلها وابتلاءه بالحرية التوحيدية، وإماتته وبعثه، وحسابه يوم الدين، وخلوده منعمًا أو مهانًا وفق نوعية الاختيار الذي اختاره لنفسه في حياته الدنيا، يحقق الإنسان أربع ثمرات وثيقة الصلة بترشيد علومه، **أولها**: إنارة افق معارفه وخبرته وتوسيع فضائهما الزماني والمكاني، **وثانيها**: تعميق إيمانه بالله بما يربط به على قلبه. و**ثالثها**: تحقيق التناغم بينه وبين الكون الذي يعيش فيه. و**رابعها**: بلوغ الرشد الإنساني بتوافق لا زماني ولا مكاني يجمع بين غاية تسع الدنيا والآخرة، تمكنه من معايرة أولوياته، ومن تقويم منظوراته، ومن التصرف على نحو يجعل للحياة معنى، ويستديم ذلك المعنى ويحييه.

ومن معين القرآن الصافي يمكن صنع الأسئلة الكلية المعنية معنية بمعرفة الإنسان لنفسه وأصله وغايته ومصيره، والتي انشغل الفكر الفلسفي بها منذ الأزل دون أن يصل إلى قول شاف. وباستكشاف إجابة قرآنية على تلك الأسئلة لا ينعم الإنسان بالراحة القلبية النابعة من سكينة معرفة الحقيقة فحسب، بل بتوجيه طاقته على نحو بناء مؤسس على معرفة ما هو متوقع منه، والمبادئ التي يتعين عليه الالتزام بها طيلة مشوار حياته على الأرض.

وفي نور القرآن وبروح منه يكتشف الإنسان المعاصر سوء ما فعله بنفسه، مآسي غواية منطق الدولة القومية، وقراءة التاريخ الإنساني بمنطقها، والغفلة عن حقيقة أنها معطى وجودي طارئ، وينفتح ذهنه على أن منطق الأمة كان هو السائد على مدى التاريخ الإنساني. ويستعيد ذاكرته في أن منطق الأمة يمكن أن ينشئ متصلاً للسعي الأمتي من أربعة صنوف، **أولها**: سعي أمة مدخلة بالحق تستأنس وتستأذن وتعقد عقودًا مع كل مكونات الأمة التي هاجرت إليها. ونموذجها هو الأمة التي تشكلت بالمدينة المنورة ونشأ بميلادها التاريخ الهجري. و**ثانيها**: سعي أمة مدخلة بما يحولها من وضعية الاصطفاء إلى وضعية اللعنة من الله وملائكته والناس جميعًا، وهي الأمة التي تجعل شرط دخولها أرضًا

مقدسة هو إخراج أهلها منها بالقوة أولاً، ويصل الضلال بها، حد توهم أن يتم مطلبها هذا بقتال يقوم به الله تعالى ونبي من أولي العزم من الرسل. ويندرج في هذا النموذج كافة النماذج الاستيطانية العنصرية في العصر الحديث. ونموذجها هو النموذج الإسرائيلي. و**ثالثها**: أمة مخرجة بطرًا ورآء الناس ويغيًا في الأرض بغير الحق. ومن نمماذجها: أمة السلام الروماني وكل ما تكاثر منه من النماذج الفاشية والنازية والعنصرية المعاصرة. و**رابعها**: الأمة المخرجة بصفة خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتجتهد في البلاغ المبين في إقامة الحجة لله تعالى على نفسها وعلى غيرها، وتمثل نفسًا لوامة أوابة توابة تمشي على الأرض هونًا، وتدعو إلى الله على بصيرة بالحكمة والموعظة الحسنة المجادلة بالتي هي أحسن، وتتفانى في إرادة الإصلاح، ولا تخالف هي ما تدعو إليه غيرها، وتعي أن توفيقها في نهاية المطاف هو من عند الله. وتلك هي أمتنا المكلفة بذلك، المحكومة بسنة الله الواحدة في كل الأمم، المشروطة خيريتها بوفائها بهذا التكليف المهيب، القابلة في حال نكوصها عنه للإصابة بالوهن وبذهاب ريحها، الموعودة باستعادة عافيتها ودورها العمراني فيما لو تذكرت وفاءت بتوبة نصوح إلى أمر ربها وقرآنها.

وباستكشاف خريطة السعي الأمتي بصنوفه الأربعة سالفة الذكر، يستطيع الإنسان طرح سؤاله عن: عبرة تقزيمه في جنسية تمنح وتسحب بإرادة إنسانية لإنسان أو من إنسان، وعن عبرة مآلات الأمم المدخلة والمخرجة بقوة الحق، والأمم المدخلة والمخرجة بحق القوة القاهرة.

وسيكتشف الإنسان أنه حينما تكون الغلبة للنزعة المادية، تقزم الطبيعة في بعدها المادي، ويتم اختزال الإنسان نفسه في بعده الجسدي، ولا يغدو هناك مبرر عقلي يذكر للقول بأولوية ذلك الكائن الحي بتركيبه الكيميائي. ويصير علم الإنسان -على أحسن الفروض - علمًا سلوكيًا، حيث لا مسوغ يذكر في عالم الصيغ الهندسية المتاحة، لعدم إخضاع سلوكه وردود فعله النفسية، بوصفه كائنًا بيولوجيًا، لقواعد المعمل والمصحة النفسية.

وبالوقف على عتبة هذا الطريق يتخلق منزلق يؤدي إلى مأزق إنساني لا قاع له، حيث يعتقد البعض أنه قد يمكن مع تقدم العلم، تفكيك الإنسان، ووضع كل جزء منه تحت المجهر، شأنه شأن كل الأشياء الطبيعية الأخرى، واستيعابه في العقل والجسد الجمعيين الذين يتشكل منهما المجتمع، الذي يمكن تصوره هو الآخر على نحو آلي وعضوي. فيصير الإنسان بصرف النظر عن اقتراب معالجته، موضوعًا لهندسة جماهيرية، قوامها: التلاعب به والتحكم فيه، سواء في كليته، أو في مكوناته. ومع تفكيك

الإنسان واستيعابه في كيان جمعي مجرد على هذا النحو، يصير المجتمع بمثابة مقبرة للإنسانية، وتتلاشى فرصة استعادة أي شيء له جوهر في الطبيعة.

والنتيجة التي تترتب على تطبيع الإنسان على هذا النحو هي، بتعبير منى أبو الفضل، (مسخه)، بمعنى: تدنيته من مقامه كونه الحامل للأمانة الذي كرمه ربه وسخر له الطيبات، إلى مجرد نوع من أنواعٍ لا حصر لها من الحيوانات والدواب. فلقد بدأ العصر الحديث محتفيًا بترويض الإنسان على قبول تصور خاطئ لأصله، وفق نزعة إنسانية مجانبة للصواب، على أمل استعادة روابطه مع الطبيعة ومع عالم حياته الدنيوي، الذي هو مثابته الطبيعية التي عزل عنها، على نحو مصطنع، فيما يبدو، على مدى حقبة طويلة، بقيود سيقت جميعها على أنها مفروضة من الآلهة، ورعتها على نحو صارم سلطة ادعت القداسة وتمثيل تلك الآلهة، والوساطة بين الإنسان وربه فيما يتعلق بمصيره. وقبل الإنسان هذا التغريب المفروض عليه عن الطبيعة وعن الدنيا، لأمد طويل بذريعة الخطيئة والتكفير عن طبيعته الآثمة.

ومع زوال دعوى القداسة عن تلك السلطة الدينية، اجتاحت الساحة موجة جديدة من الأفكار الحاملة لبذور الشك في المعتقدات القديمة، وتسللت مدركات جديدة تشرب الإنسان منها إحساسًا زائفًا باستعادته لهويته ولعقله ولحيويته، على نحو توج بموجة نشاط قدر لها أن تشكل، أو بالأحرى أن تعيد تشكيل العالم. وباستعادة "العصب"-على حد قول **بيتر جي** - ولد العصر الجديد.

ومع فقدان الثقة في الأوصياء، تنحت الروح على نحو خفي، وبات الإنسان - أخيرًا- حرًا في إطلاق العنان لغرائزه المكبوتة والاستمتاع الكامل برغباته ونزواته. وغدا بوسع **نيرسيوس** أن يرى وجهه الحسن وسط زنبق البحيرة الجميل، ولأن يعزف **أورفيوس** على قيثارته لحنه الحزين في الظل، ولأن تبعث العنقاء من نار **بروميثيوس**، ويهل ربيع **ديونسيوس** من جديد، وإن احتاج ذلك بلا ريب لفسحة زمنية مناسبة.

وفي نفس الوقت، فإن إطلاق العنان للأهواء وللمبالغات التي شكلت النهضة الإيطالية، كما وصفها مؤرخوها للأجيال القادمة، جرى تبريره في العصر التالي لها. وبدا في ذلك العصر أن التنفيس عن العقد النفسية المكبوتة، أفقد الإنسان توازنه مؤقتًا، في الوقت الذي ظن فيه أنه بصدد استعادة نفسه. بيد أنه من سنن الطبيعة بوصفها من خلق الله تعالى أن كل إسراف وانغماس يقتضي جزاء من نوعه. فالجائزة موضع الرهان صارت مهددة بالزوال قبل أن يحين أوانها. فلقد عملت الكوابح والتوترات الطبيعية التي تكفل للحياة البقاء على كبح هذه الفورة الحماسية الجامحة، وتدشين منهجية جديدة، يعرف

الإنسان في ظلها بالعقل والعاطفة معًا وعلى قدم المساواة، مع الحفاوة بالجمال جنبًا إلى جنب مع القوة.

واكتشف الإنسان أن الحركة جزء من الحياة، شأنها شأن المجال الذي تتم فيه، وشرع الإنسان في البحث عن التاريخ، واستكشاف ماضيه. وساقته آماله إلى البحث عن مستقبل بلا حدود، مع احتفائه بإحساسه المستعاد بعالمه وبحياته الدنيوية. وصاحب ذلك إحساس جديد بالثقة والجرأة التي تعززت باكتشافه لاتجاه التاريخ. فالتقدم ظاهر للعيان على أسس ملموسة، وأداته هي العلم.

وحول الإنسان بتوزعه بين أداة التقدم وحامله - العلم والتاريخ - إيمانه المراوغ بين النزعة العلمية والنزعة التاريخية، على نحو انتقائي. وصارت كل نزعة منهما - حسب الطلب - سلطة موثوق بها وعقيدة تتنافس على ولاء العصر الحديث.

وتحالفت النزعة العلمية بالطبع مع النزعة المادية، في حين مثلت النزعة التاريخية ثمرة عقلية لسلطة زمنية ثابتة وحلولية، مما أسفر عن تولد نزعة غنوصية جديدة. وهكذا تجذر الجهل وسط معرفة وافرة. وغطت على نور التنوير سحائب ظلام دامس، حيث وجد الإنسان نفسه وجهًا لوجه مع نفسه بوصفه: المجهول.

وتحت الوطأة المركبة لتلك العقيدتين المتضاربتين، وغير القابلتين للتوافق، بكل معنى الكلمة، خضع الإنسان لنوع جديد من الحتميات، أسلم به قياده لعملية مسخ لخليقته هو ذاته. فلقد تم باطراد تهميش للإنسان من وضعية الخلافة المنوطة برسالة كونية، إلى غمرة عمليات وقوى خارج استطاعته. فهو حين يخذله العقل لا يجد مناصًا من أن يؤمن. وحين لا يكون بالإمكان التثبت من ذلك الاعتقاد بأدوات التثبت التي كيّف نفسه على الاعتماد عليها، يجد نفسه مطالبًا بالتكيف مع الثقة في مدركات غير مختبرة، يدرك تمامًا أنها لا أساس لها.

وهكذا، فإن عصر التمركز حول الإنسان الذي بدأ باعتبار الإنسان مركزًا للكون، انتهى ببطاقة طرد له، بنزع تلك المركزية عنه. فحيثما يتوجه الإنسان يجد نفسه مطاردًا بأشباح جديدة من الاغتراب، وحائراً أمام منشور محطم لعالم خال من أي معنى، يسير على شاكلة لولب هابط، يستدعي إعادة تفكيك البقية المتبقية منه. وفي وسط الوفرة نجد الإنسان المحروم، والمالك المستلب.

ولا غرابة - في ضوء ذلك - أن تشهد نهاية القرن العشرين إطلاق سلسلة سخيفة من مقولات النهايات، تحسبًا لرؤى مشوشة، من بينها دعوى نهاية التاريخ التي تشير إلى حلول الألفية السعيدة، مع الخشية من أن تكون مجرد سراب بقيعة، وأن تكون بمثابة حفل لن يوجد من يدعى إليه. فلقد طرح البعض مقولة (نهاية الإنسان) بين مؤيد ومعارض. وواكب ذلك الوصول إلى مرحلة اللايقين والتكريس الأعمى: عصر ما بعد الحداثة. وصدق الله تعالى ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر19].

ومن هذا السياق، يتعين التذكر من رحم الزمن، من الماضي السحيق، على أمل إيقاظ الذاكرة، التي يمكن أن تنقذ الإنسان. ويتم ههنا تنشيط قطب المعرفة الذي تعرض للتحقير والتجاهل لأمد طويل. فمع وصول نزعة تمركز الإنسان حول ذاته إلى منتهاها، فإن من دواعي التفكير السديد أن يطرح هذا السؤال: ألم يحن الأوان بعد للبحث عن معرفة الله؟ أما وقد استنفد الإنسان معياره دون طائل يذكر، فإن من دواعي العقل التسليم بأنه لم يعد في وسعه التمسك بدعواه (أنه مقياس لكل شيء). فثمة مقياس لكل شيء بما في ذلك الإنسان. ومقياس إنسانية الإنسان الذي يجيء به الحق ويذهب الباطل هو طرح سؤال: هل يستوي الإنسان المخلوق بالصدفة المخير بين أن يَقهر أو أن يُقهر، والإنسان الرباني الخلق، المكرم من ربه، المشمول برزق منه بغير حساب، المزود بالطيبات وبهدي رباني منزل على كل الأمم للإحسان في حمل الأمانة، وتحصيل الفلاح الأبدي؟ وهل تتساوى المعرفة المجزأة بدعوى التخصص الضيق، مع وحدة المعرفة المتراحمة التي تنظر للإنسان في كليته بعلم كامل وشامل موجه من الله تعالى للإنسان لكفالة هدايته بهدى رباني يشكل هو ذاته آصرة الرحمة الربانية. ويؤسس مبدأ كون الإنسان كائنًا علاقيًا، وكل ممكن، ولا تتحقق سلامته، إلا باندماجه مجددًا في الكل الأكبر الذي فطر على الارتباط به، ارتباط المسبح بحمد الله.

أيحق لنا أن نختم بسؤال: هل من سبيل غير استعادة استكشاف الإنسان نفسه عبر الهدي القرآني للتعافي من أوهام التقدم السرابي المعاصر الذي يتغذى من إرادة الهيمنة والإخضاع، ويغذيها، ويتمخض عن فقدان الطغاة أنفسهم لنعمة الأمن، بسنة الله في خلقه التي جعلت الأمن الحقيقي قصرًا على الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم، ويهلك الحرث والنسل، ويقوي عضد حياة الضنك والاغتراب واللامعنى، ويقود النفس الضالة والمغرورة إلى توليد صور من الإفراط الخاص بها، والدفع باتجاه النقيض، بالسعي إلى تدمير ذاتها بتمركزها حول ذاتها، وبحرمانها ذاتها بانغماسها الأناني من فيوضات

عبديتها لله وتعاونها على البر والتقوى واجتنابها التعاون على الإثم والعدوان؟ ألم يحن الأوان بعد للتدبر في الخروج من ضيق الوهم العلماني المعاصر المؤسس على رؤية قميئة للدين وللعلم، لبابها: ترويج أن البشرية بحاجة إلى الخلاص، وأن سبيل الخلاص هو تدخل جراحي يسوق العامة كالقطيع بسياسات وبرامج تصوغها وتنفذها أقلية منظمة من البشر بيدها مقاليد ما يسمى: مجامع الأمن القومي المعاصرة، جوهرها أيًا كان خطابها هو (إرغام الإنسان على أن يكون حرًا)، بتضليل تارة، وبقهر مباشر تارة أخرى، وفق التعريف المزيف لمفهوم (الحر) قائم على ادعاء تلك الأقليات المنظمة أنها تعرف صالح الأغلبية المنظمة أكثر من معرفة الأخيرة لصالحها؟ وهل يمكن للإنسان التخلص من أس مفهوم (الخلاص) واستشراف آفاق تحصيل (الفلاح) إلا بوعي ببيان طريق حياته بنور القرآن الذي يعينه على رؤية كل شيء بحجمه الصحيح، وينظم كل أسئلته في سؤال واحد هو: كيف يحمل أمانة اختيار حدود حريته وأخلاقيته برؤية شاملة ومتوازنة تغذيه في حاضره بعبرة الماضي، ليسد بهما حاجة يومه وينظر ما يقدمه لغده؟

وبمثل هذه الأسئلة التي تحفر في الجذور وتدقق في البذور يمكن للإنسان استعادة ذاكرته ومعرفة فضل ربه عليه، وتقدير المقام المستحق للدين الحق في الكون، وينحسر زيف ما يصنعه الإنسان المعاصر من معرفة يستحيل مهما تقدمت أن تحرره إلا من بعض الوثنيات التي اصطنعها هو، لكنها لن تبلغه أبدًا مقام: العبدية لله تعالى. فالفلسفة الإنسانية المكتفية بالعقل الإنساني مفصولاً عن الهدي الرباني يمكنها أن تحقق الشطر الأول من الركن الأول من أركان الإسلام (لا إله). وهي في وقوفها عند هذا الحد وعجزها عن تحقيق (إلا الله) تزيف آلهة زائفة بالفعل، وتحل محلها آلهة لا تقل عنها زيفًا. فالفلسفة الإنسانية التي لا تنظر في الأسئلة الكلية بنور القرآن قد تستطيع تزييف الآلهة الزائفة، ولكنها تصنع آلهة أشد منها زيفًا بمجرد أن تخوض فيما وراء ذلك في البحث عن الإله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي ليس كمثله شيء، والذي لا يعرف إلا بهدى من لدنه. وهي في بحثها في ساحة الغيب لا تولد إلا متاهة عديمة المعنى وهدامة يقع المبتلى بها إما في الإفراط وإما في التفريط في معرفة حقيقة النفس البشرية، وتلقي بظلالها القاتمة على العلوم بما يعمي البصر والبصيرة. ولا عاصم من الغرق في بحور ظلمات الغي إلى حد يرد فيه إلى أسفل سافلين في دركات مثلية الأنعام بل ما هو أضل منها، إلا استعادة رؤيته لنفسه عبدا لله وحده في نور القرآن الكريم.